31

كان يوم 2 تشرين الثاني/نوفمبر 2004 أحد أهم أيام حياة بوش. فتعليقاته، تفاعلاته وسلوكه إزاء يوم الانتخاب جرى توثيقها جيداً داخلياً في البيت الأبيض بأيدي مساعدين، أصدقاء ومدوني ملاحظات. يلقي هذا اليوم الضوء على أسلوب بوش في بلورة المعلومات، اتخاذ القرارات والرد على الأنباء غير السارة منها والسارة.

أدلى بوش بصوته في الصباح الباكر في مركز فرقة إطفاء كروفورد، دائرة رقم ٤٥، بالقرب من مزرعته في تكساس. انقض على أحد الهواتف الخليوية ليتصل مع مقيو داود، كبير خبراء الاستراتيجيا واستطلاع الرأي.

"ما الذي سيحصل برأيك يا ماتي؟"

"ستفوز، سيادة الرئيس، بنقطتين أو ثلاث نقاط مئوية حسب اعتقادي".

"حقاً" قال بوش "أنا رجل خمس نقاط كما تعلم". كانت الاستطلاعات الأخيرة قد أظهرت بوش والمرشح الديمقراطي جون كري متساويين، 48 بالمئة لكل منهما. وبوش كان قد ظل يعبر عن رغبته في الفوز بزيادة 5 بالمئة. ذلك كان حدسه.

"صحيح، أعرف ذلك" قال داود. "أحب تفاؤلك، غير أنني لا أرى أن ذلك سيحصل".

"حسناً، سوف نرى" قال بوش منهياً المكالمة.

على السطح بدا جون كري خصماً عملاقاً. سناتور ماساتشوستسي لأربع دورات، أكبر سناً من بوش بعامين، كان قد فاز بالنجمة الفضية وبأربعة قلوب وردية في القتال متولياً قيادة زورق سريع في البحرية بفيتنام عامي 1968 و1969. غير أن المجموعة المعروفة بمخضرمي الزوارق السريعة الباحثين عن الحقيقة كانت قد تحدت بطولة كري ونشرت كتاباً بعنوان **غير أهل للقيادة**، سرعان ما طار ليحتل المرتبة الأولى في قائمة الكتب الأكثر بيعاً. كان كري وحملته قد أخفقا في الرد بقوة. وبوصفه سناتوراً، كان كري قد صوت موافقاً على الحرب في العراق، وخلال الحملة لم يكن قد وُفق في الاهتداء إلى طريقة مناسبة لانتقاد هذه الحرب بنجاح. عموماً، بدا كري مسكوناً

بالشك متردداً، في حين كان بوش ناجحاً في تقديم نفسه في الحملة بوصفه إنساناً مطَّرداً وصلب العود.

بعد التصويت في كروفورد وافق بوش على محطة يوم انتخابي أخير في أوهايو قبل أن تقلع ايرفورس ون (طائرة سلاح الجو رقم: 1) متوجهة نحو واشنطن عصر ذلك اليوم. على متن الطائرة الرئاسية تلقى كارل روف مكالمة هاتفية من داود نحو الساعة الثالثة بعد الظهر فيما كانت الطائرة تهبط عبر الغيوم قبيل إطلالتها الأخيرة على قاعدة أندروز الجوية بميريلاند. انقطع الاتصال، غير أنه ما لبث أن عاد مع هاتف روف.

"لا يبدو الوضع مطمئناً" قال داود لروف، مطلقاً سيلاً من الأرقام المأخوذة من الموجة الأولى من استطلاعات الرأي لأوائل الخارجين من صناديق الاقتراع. قام روف بحصر جهاز الهاتف بين أذنه وكتفه وحاول أن يخربش الأرقام على قطعة ورق أسندها إلى ركبته.

في ميسيسيبي، إحدى القلاع الجمهورية الراسخة، لم يكن بوش متقدماً إلا بنسبة واحد بالمئة حسب إفادات الخارجين من مكتب الاقتراع. أما بنسلفانيا ونيوهامبشاير فقد كانتا أسوأ. كان بوش متخلفاً بـ 17 و19 نقطة على التوالي، حيث كانت استطلاعات ما قبل الانتخابات قد بينته متخلفاً بنسبة واحد أو اثنين بالمئة على الأكثر. أرقام أخرى أظهرت بوش متقدماً بنقطة مئوية واحدة في ولاية فيرجينيا ذات الكثافة الجمهورية، وكانت تشي بأن السباق كان شديد التقارب في كولورادو ونيفادا.

"ألا لعنة الرب!" قال روف "كيف يمكن لهذا أن يحصل؟"

كان داود مشغولاً، هو نفسه، بالرد على ذلك السؤال: "لعله أحد أمرين. إما أن هذه الأرقام خاطئة كلياً أو أننا كنا مخطئين جذرياً في فهم الناخبين، ولا أريد ترجيح كفة الاحتمال الثاني لأن من شأن ذلك أن يوحي بأننا لم نكن على علم بما كنا نقوم به". من شأنهما أن يصبحا فضيحتين، مسؤولين عن سوء إدارة الحملة.

رايس، التي كانت قد رافقت بوش خلال الأيام الأربعة الأخيرة من الحملة، رأت في إفادات الخارجين من مكاتب الاقتراع في مسقط رأسها بولاية آلاباما أشارت إلى تفوق بوش بواحد بالمئة. وآلاباما هذه كانت إحدى الولايات الجمهورية الجديرة بالثقة والمعول عليها، ولم يتفوق فيها بوش إلا بواحد بالمئة، كيف؟ كانت استطلاعات الرأي السابقة قد

جعلت الفرق رقماً من حدين في آلاباما. خرجت من مقصورة بوش كي لا ترى الرئيس وجهاً لوجه، وسارت نحو مؤخرة الطائرة.

فيما بعد قالت لبعض الزملاء: "لم أرغب في أن أكون في الحجرة نفسها مع الرئيس في تلك اللحظة. فقط لم أكن راغبة".

كان روف ماشياً في الاتجاه المعاكس، نحو المقصورة الأمامية، فيما كانت الطائرة متوشكة على ملامسة الأرض.

"حصلت على بعض الأرقام" قال روف لبوش، "وهي لا تبدو مرضية". راح يقرؤها بصوت مرتفع. بقي واقعياً وحريصاً، ولكنه ما لبث أن أضاف، مراوغاً: "بعضها لا ينطوي على أي معنى، بالمطلق".

"لا أصدّق الأمر" قال بوش. "ما الذي تستخلصه منها؟" سأل الرئيس بعد أن استعاد نَفَسه.

"لا أعرف" أجاب روف، مضيفاً أنه لم يكن قد تعمق في دارسة بيانات الاستبيان بالتفصيل. "علي أن أنتظر إلى أن نعود إلى البيت الأبيض فأعاين الأرقام. إنها الموجة الأولى. ليست، عموماً، جديرة بالتعويل - غير أن هناك أمراً - إما أننا سنتعرض للانطفاء أو أن هناك خطأ جذرياً في هذه الأرقام".

"حسناً" قال بوش ببرود، "لنر ما ستحدث. سبق لنا أن عشنا هذه التجربة". لم يكن بحاجة إلى الإتيان على ذكر أيام الضياع الـ 36 بعد حملة الـ 2000 قبل قيام المحكمة العليا بحسم الانتخاب لمصلحته. لم يكن الفوز في فلوريدا إلا بـ 537 صوتاً من 6.138.764 صوتاً مقترعاً في 2000. "سأقوم بإبلاغ لورا والبنتين" قال الرئيس.

إحدى ابنتيه التوأمين أجهشت في البكاء حين علمت.

"اسمعن" قال الرئيس موجهاً كلامه إلى أفراد أسرته الصغيرة "أريدكن أن تتحلين بالإيمان. لنبادر جميعاً إلى رسم إبتسامة عريضة على وجوهنا. لم ينقض الليل بعد".

في الطريق على متن إحدى الحوامات من مطار آندروز إلى البيت الأبيض، أدرك بوش أن وسائل الإعلام كانت قد اطلعت على بيانات الاستبيان نفسها. من المؤكد أن الكاميرات كانت ستبقى شديدة الحرص على أخذ لقطات حية لوجوه تشي بالحزن والهزيمة - الصور أو الأفلام القاتلة التي تنبئ برقياً عن العواطف الخام الملازمة للأنباء غير السارة.

كان أمر الرئيس على النحو التالي: "ليسارع الجميع إلى وضع أقنعة المسرح!"

في البيت الأبيض كان رئيس جهاز العاملين كارد قد اطّلع هو الآخر على البيانات نفسها، وكان مع عدد قليل من العاملين ينتظرون للخروج واستقبال الرئيس لحظة نزوله من الحوّامة.

"ثمة ابتسامات على وجوهنا جميعاً". قال كارد للآخرين لدى خروجهم.

"عظيم أن نراك" قال كارد للرئيس. كبرى الابتسامات كانت مرسومة على وجه كارد. "يوم عظيم. يا له من يوم عظيم!"

سأله بوش وهما يدخلان: "هل رأيت الأرقام؟"

"نعم. لقد رأيت الأرقام. أنا لا أؤمن بالأرقام ولا أصدقها. لا يقف الأمر عند هذا الحد، أنت لا تصدق الأرقام. إذن نحن في وضع جيد".

"ما الذي يجري؟" سأل بوش: "ما الذي يجري؟"

كارد وروف ابتعدا للتشاور همساً، وتبعهما الرئيس. مرة أخرى عبر كارد عن اعتقاده بأن الأرقام لم تكن قابلة للتصديق.

"لا تقلق بشأن الأمر" قال كارد لبوش. كانوا سيحاولون معرفة المزيد. "لا تقحم ذهنك في هذه اللعبة. سيكون كل شيء على ما يرام".

عبر الرئيس عن رغبته في العزلة. قال: "أنا صاعد إلى فوق". مشيراً إلى أنه ذاهب إلى المقر السكني في البيت الأبيض. كان، هو ولورا، قد وجها الدعوات إلى ما يزيد على العشرة من الأصدقاء والأقارب لقضاء الليل في البيت الأبيض. كذلك كان بلير هاوس، قصر الضيافة الإضافي على الضفة المقابلة من جادة بنسلفانيا، مزدحماً بأصدقاء آخرين. كانت الفنادق المحلية ملأى. لم يكن، بعد، راغباً في رؤيتهم جميعاً قال: "لست جاهزاً، لست جاهزاً".

توجهت رايس مباشرةً من الحوامة إلى مجمع مكتبها في الجناح الغربي. صُعق هادلي أمام منظرها. كان قد درج على رؤيتها نحو 20 مرة في اليوم، يومياً تقريباً منذ أربع سنوات، عبر أحداث 9/11، الحرب الأفغانية، الحرب العراقية. عبر أوقات سعيدة وأخرى بائسة، كانت قد بدت على الدوام منسجمة مع اللقب الذي كانت قد حصلت

حليه من أركانها - لقب أميرة الحرب - وبدت على الدوام مستوعبة الأمور كلها. أما الآن فإن رايس كانت قد بدت في أسوأ حالة سبق لهادلي أن رآها فيها. بل وكان ثمة تهور خفيف في وقفتها شبه المثالية عادةً. لم يعرف هادلي، الذي كان بريئاً براءة رئعة من آثار واشنطن السياسية دون أي صلات ذات شأن مع وسائل الإعلام، أي شيء عن استبيات الخارجين من صناديق الاقتراع. تبع رايس إلى مكتبها وأغلق الباب.

طرح سؤال: "ما المصيبة يا كوندي؟" قذفاً.

ردت: "قبل قليل اطلعنا على بيانات استطلاع مبكرة، وهي ليست جيدة". كانت بالفعل منذرة، مشيرة، في الحقيقة إلى احتمال فوز مدوٍ للسناتور كري.

والد الرئيس، الرئيس الأسبق بوش والسيدة الأولى السابقة باربارة بوش، كانا بين الباقين في البيت الأبيض تلك الليلة. انتحى أحد أصدقاء عائلة بوش القدامى بباربارة جانباً. قال لها:

"نحن شديدو الانفعال والرغبة في البقاء هنا، غير أنني أعرف مدى حدة هذا النوع من التوتر الحاصل هذه الليلة. إنهم بحاجةٍ إلى العزلة والهدوء".

بدت باربارة موافقة. أفادت بأن زوجها، الرئيس الأسبق، وهو في الثمانين من العمر الآن، كان يعاني من التهاب حاد في المعدة جراء التوتر العصبي.

في الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة انزلق بوش الأب إلى حيث روف. أراد معرفة ما كان يحصل.

أبلغه روف بأن البيانات لم تكن مشجعة على الإطلاق. مؤسسات استطلاعات الرأي رأت أن النساء كن أكثر من الرجال حسب كلام روف وتبين أن المتأخرين في اتخاذ القرار كانوا أكثر من أعدادهم الفعلية. في الساعة الخامسة والدقيقة الثامنة عشرة اتصل الرئيس بروف، قاطعاً حديث الأخير مع الأب.

كرر روف استنتاجاته.

علق بوش: "حسناً، سنرى عاجلاً جداً".

لا وألف لا قال روف لنفسه. ما من شيء، ما من حجة وما من تحليل استطاع أن يلتمسه إلا وأكد له بأن الأرقام كانت خاطئة، نعم خاطئة بالفعل. ولكنه لم يستطع، رغم

كل منهجية أفكاره وتحليلاته، أن يقتلع وساوس الشك. لم يكن الأمر ذا معنى، ولكن من يعلم؟ قد تكون الأرقام صحيحة. أدرك بأن احتمال تعرضه لذبحة قلبية، إذا كان وارداً في حياته كلها، كان سيقع في غضون السويعات القليلة القادمة.

في الساعة الخامسة والدقيقة العشرين تركه بوش الأب وراح يجول في مسكنه ومكاتبه السابقين. بعد ست دقائق اقتحمت رايس المكتب.

"سيء، سيء، سيء" صرخ روف "لا أستطيع أن أرى أمامي من فرط الانزعاج".

كان محرر رسائل الرئيس مايكل غيرسون عاكفاً على توجيه الخطابات الإلكترونية إلى كبار قادة حملة بوش نحو الساعة السادسة والنصف مستفسراً عما قد حدث. كان غيرسون، ذلك المسيحي الإنجيلي البالغ 40 سنة من العمر الذي كان قد درس اللاهوت في جامعة بيلي غراهام الإنجيلية، بايلينوي، قد كتب جميع خطب بوش الشهيرة فيما بعد 9/11 بما فيها ذلك الذي ألقاه في كاتدرائية واشنطن القومية يوم 4 أيلول/سبتمبر 2001 قائلاً: "هذا النزاع بدأ بتوقيت الآخرين وشروطهم. سأضع له حد في ساعة من اختيارنا نحن". - جنباً إلى جنب مع تعليقاته في جلسة مشتركة للكونغرس يوم 20 أيلول/سبتمبر إذ قال: "يتعين على الأمريكيين ألا يتوقعوا معركة واحدة؛ عليهم أن ينتظروا حملة مطولة". كان غيرسون قد كتب خطاب بوش عن حالة الاتحاد في 2002، ذلك الخطاب الذي عد العراق، إيران وكوريا الشمالية محوراً للشر رابطاً بين الإرهاب وأسلحة الدمار الشامل، كما كان قد ابتكر الجذور الفكرية والتاريخية المناسبة لخطاب بوش حول عقيدة "الحرب الاستباقية" الذي ألقاه في وست بوينت بشهر حزيران/يونيو 2002 - "لم يتم كسب الحرب على الإرهاب دفاعياً". كان يعلم بأن واجبه لا يقتصر على ضمان بقاء خطاب بوش الانتصاري جاهزاً، بل وكان يشمل أيضاً إعداد ما كان يطلق عليه اسم "الخطاب الثاني". فالتنازل المحتمل لجورج كري كان مصمماً بحيث يكون تجسيداً للنُّبل والكرم. كان غيرسون شديد الاعتزاز بالجملة الأولى من مسودته. كان بوش سيقول: "للتو تلقيت اتصالاً هاتفياً من خصمي الذي لم يعد خصمي. إنه 'الرئيس المنتخب للولايات المتحدة".

في تمام الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين من المساء، مع شروع الصناديق في الإغلاق في الولايات الشرقية، انتقل روف إلى غرفة حرب حملة التكنولوجيا العالية الكائنة في غرفة طعام العائلة القديمة على الطبقة الأولى من

المسكن الرئاسي في البيت الأبيض. خمس شاشات تلفزيون جدارية عملاقة كانت تغطي أحد الجدران. اهتدى روف إلى مكان يجلس فيه عند طرف الطاولة الكبيرة وسط الغرفة. كان يحمل خارطة كبيرة للولايات المتحدة على شاشة حاسوبه. نقرة صغيرة على الولاية كانت كافية لإبراز الأرقام الأخيرة لأصوات بوش وكري. ثم كانت خارطة تلك الولاية تظهر على الشاشة. كان يستطيع أن ينقر على أي دائرة في تلك الولاية ليحصل على جملة الأرقام المتدفقة من نشطاء الحملة وموظفي الحزب الجمهوري المحليين في مضافات تلك الدائرة ومراكزها الانتخابية، في طول البلاد وعرضها.

وصل بوش الأب إلى غرفة الحرب في التاسعة والدقيقة الواحدة والأربعين. كان متوتر الأعصاب.

أبلغه روف: "متقدمون نحن في أوهايو وفلوريدا". قبل قليل كان على اتصال هاتفي مع حاكم فلوريدا جيب بوش، الذي قال إنهم كانوا موشكين على بلوغ أهدافهم في ولايته. مع إغلاق صناديق الاقتراع في سائر الأمكنة عدا ست ولايات غربية، جال روف على شاشة حاسوبه ناقراً سلسلة المدن الرئيسة. رايس كانت هناك مضطلعة بدور أحد التتبة مستشيرة دفتر أهداف روف ونمط أداء الـ 2000 في الدوائر التي كان روف يستحضرها على الشاشة.

"دقت ساعة الرقص" أعلن روف. اتصل بعدد من مراسلي التلفزيونات الرئيسة للاستفهام عن أوهايو. أفاد روف "أداؤنا المئوي أفضل من نظيره في 2000 في سائر المدن في حين أن أداءهم المئوي أسوأ".

نول الرئيس، أطلعه روف على الأرقام في الدوائر الرئيسة التي أظهرت تفوقه على أوهايو. غادر بوش الغرفة. ولكن روف ما لبث أن استدعاه ثانيةً في الساعة التاسعة والدقيقة الخمسين.

قال روف بثقة: "سنكسب أوهايو".

أمره بوش: "تابع مراقبتها".

بعد نحو ساعة، قبيل الحادية عشرة، اتصل كارد مع مديرة حملة كري ماري بث كاميل، ليرى ما إذا كانت قادرة على تزويده بصورة عن اندفاعة حَمْلة كري.

"إننا لا أعرف ما تشي به أرقامكم أنتم، أما أرقامنا نحن فتقول إننا سنفوز. وإذا كانت أرقامكم تبين الوضع نفسه فقد يكون من المناسب أن نبرمج لاتصال هاتفي. هل تقبل أرقامكم ما تقوله أرقامنا؟"

ردت كاهيل بلباقة "لا". أوضحت أن أرقام حملة كري لم تكن تعطي الصورة ذاتها.

علق كارد: "حسناً، لست ملحاً. لست ملحاً. ذلك كل شيء".

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرين عاد الرئيس، في ملابس فضفاضة ودون ربطة عنق، إلى غرفة الحرب.

قال بوش: "يا للانتخاب الذي لن ينتهي أبداً!" ثم شكا "يا للتعب!" وكان ظاهراً أنه مرهق فعلاً. كانت الليلة مفتقرة إلى الوضوح الإحصائي الجامد الذي كان يريده. الأداء الشبكي كان شديد الإزعاج برأيه. لم يكن أحد قد أعلن فوزه في فلوريدا رغم انتهاء الفرز في 95 بالمئة من الدوائر. يكاد لا يُصدق.

في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الأربعين، أعلنت قناة الايه بي سي فوز بوش في فلوريدا. تعالت الهتافات في غرفة روف الحربية.

في الساعة الثانية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرين بعد منتصف الليل اندلعت نار قلق بوش. سأل روف: "متى سينتهي؟" كان يريد الذهاب إلى مبنى ريغان، حيث كان مؤيدوه مجتمعين، ويعلن الانتصار. متى كان يستطيع أن يفعل ذلك؟

أفاد روف: "ربما في غضون الساعة". وبعد أقل من عشر دقائق أكد بأن أوهايو باتت مضمونة. غير أن الشبكات لم تكن تعلن ذلك بعد.

في الساعة الثانية عشرة والدقيقة الواحدة والخمسين، قرر كارد أن الأرقام باتت على درجة كافية من الوضوح والرجحان. متوجهاً نحو روف قال: "تهانينا. لقد ربحنا الانتخاب للتو". تعانق الرجلان. كذلك سارعت رايس إلى معانقة روف.

في تمام الواحدة بعد منتصف الليل أعاد كارد الاتصال مع كاهيل.

أفادت الأخيرة بأن حملة كري كانت واثقة.

فوجئ كارد واختلط عليه الأمر بعض الشيء: "حسناً. هل تعتقدين أننا سنرتب اتصالاً هاتفياً بينهما؟" قاصداً أن يبادر كري إلى تهنئة بوش.

ردت كاهيل: "لن نبادر نحن إلى الاتصال". بدت شبه متسائلة عما إذا كان بوش عازماً على الاتصال بكري لتهنئته.

بين أصدقاء بوش المقربين الموجودين في البيت الأبيض كانت ماري ماتالين، البالغة 51 سنة من العمر، ملكة الإعلام الجمهوري وخبيرة الاتصالات العريقة الشهيرة لدى

عـائلة بوش منذ ما لا يقل عن عقدين من الزمن. كانت في المراحل الأخيرة قد شغلت متصب مـديرة الاتصـالات لدى نائب الرئيس تشـيني منذ بضع سنوات. الرئيـسـان السّبق، رقم: 41 والراهن، رقم: 43، كلاهما، استقبلاها عناقاً عند وصولها.

وماتالين هذه متـزوجة من جيمس كارفيل الذي هو ديمقـراطي سبق له أن كان خـيـر استراتيجيات سياسية لدى بل كلنتون في 1992. صحيح أنه لم يكن منخرطاً انخراطاً مباشراً في حملة كري غير أنه كان، مع ذلك، على عـلاقة وثيقة. اتصلت به. قالت بتعاطف:

"اسمع، أعرف أن هذا صعب النسبة إليك".

أبلغها كارفيل بأن لديه بعض الأخبار الداخلية. كانت حملة كري تتأهب للاعتراض على الأصـوات المشـروطة في أوهايو – نحـو 250.000 منهـا. "أنا لست مع الرأي" قـال كا فيل. "فقط أخبرك بما يتحدثون عنه".

هرعت ماتالين إلى تشيني لتقديم تقريرها.

مـاذا؟ سـألهـا نائب الرئيس. كـان القـانون الاتحـادي ينص على توفيـر فـرصـة الـصـويت لأولئك الذين يأتون إلى مراكـز الاقـتـراع ولا تتمكن اللجـان الانتخـابيـة من الاهتداء إلى أسمائهم في قوائم الناخبين. كان من الممكن التأكد من صحة الأمر في انتخاب مغـلق. إذا كان عدد من هذه الأصوات يصل بالفعل إلى 250.000 فإن من شأن الأمر أن يغير النتيجة في أوهايو، أو، أقله، يؤدي إلى تعليق هذه النتيجة عدداً من الأيام أو أكثر.

وجهها تشيني: "من الأفضل أن تبلغي الرئيس".

أمسكت ماتالين ومعها تشيني ببوش، وجلس الثلاثة في إحدى الزوايا.

"سيعترضون على النتيجة" قالت ماتالين.

"ما الذي يعنيه ذلك؟" سأل الرئيس. كان ممسكاً ببطاقات الملاحظات وعليها نقاط بارزة بوضوح، متأهباً للذهاب إلى مبنى ريغان لإعلان الانتصار.

رأت ماتالين أن من الضروري أن يبادر أحد المسؤولين من ذوي النفوذ إلى الاتصال بوزير الخارجية الجمهوري في أوهايو، جي كنت بلاكول المسؤول عن الاعتراض على أي أصوات مشروطة.

في الساعة الواحدة والدقيقة الثلاثين من الصباح أصدرت ماري بث كاهيل بياناً قالت فيه: "عد الأصوات في أوهايو لم يستكمل بعد. ثمة ما يزيد على 250.000 صوت بحاجة إلى إحصاء،" مشيرةً إلى الأصوات المشروطة. "نعتقد بأن كري سيفوز بعد عدها".

في البيت الأبيض بدا وكأن كارفيل كان قد زود ماتالين بمعلومات جيدة. وفيما بين اثنتين من الشبكات الرئيسة، الان بي سي (NBC) وفوكس (Fox) كانتا قد وضعتا أوهايو في خانة بوش، فإن الالتباس الواضح كان يشي بعدم الحسم.

في تمام الساعة الواحدة والدقيقة التاسعة والأربعين من بعد منتصف الليل، كان روف على اتصال عبر هاتفه الخليوي مع مكتب وزير خارجية نيفادا. كان انتصار لبوين سيُعلن في غضون 20 دقيقة. كان من شأن الحؤول دون الاعتراض على جزء من انتخاب أوهايو أن يمكّن نيفادا من وضع بوش في المرتبة العليا.

حرصت رايس على الإصغاء. بدا فوز بوش أضمن من أي وقتٍ مضى. بادرت روف: "هنيئاً، أخيراً تمكنا من تحقيق النجاح".

نحو الساعة الثانية صباحاً، كان جيم فرانسيس، ذلك الذي سبق له أن كان رئيساً لسباقي بوش من أجل تولي منصب حاكم ولاية تكساس الناجحين، وحده مع الرئيس في إحدى الزوايا النائية من الطبقة الثانية لمسكن البيت الأبيض. كانا صديقين لمدة 34 سنة؛ بدأت صداقتهما في 1970، حين كان فرانسيس المبرمج الشاب البالغ 21 سنة من العمر لدى عضو الكونغرس جورج اتش دبليو بوش في حملته غير الموفقة لشغل أحد مقاعد تكساس الشاغرة في مجلس الشيوخ.

موجهاً كلامه إلى الرئيس قال فرانسيس: "أجدني مضطراً لأن أقول لك إنك أصلب ابن كلب سبق لي أن رأيته. ما من رئيس جمهورية تعرض لمثل هذا العدد الكبير من عمليات الاستهداف. ثمة مجموعة الـ 527" – منظمات الحملة المستقلة التي دأبت على تمويل كم هائل من الإعلانات التلفزيونية – "الصحافة القومية، السلك الدبلوماسي، كل فئة من فئات أصحاب المصالح الديمقراطيين، زائد اللجنة القومية الديمقراطية، زائد حمة كري. العالم كله كان يسعى لإنزالك عن العرش. وقد هزمتهم جميعاً".

تمتم بوش ببعض عبارات الشكر. اغرورقت عيناه بالدمع، لف فرانسيس بذراعه فيَ عناق أشبه بعناق الدببة. كان فرانسيس واثقاً من أن تلك كانت نظرة جورج دبليو بوش إلى نفسه: صلب وصارم، صامد كالطود في وجه العالم.

سرعان ما عاد بوش إلى الهاتف مع روف. بدا للأخير أن الرئيس صار الآن يتصل كل دقيقتين أو ثلاث. إذا كان نبأ الفوز مؤكداً، فما الذي يمنع باقي العالم – شاشات التلفزيون، كري – من الاعتراف بالواقع؟ تساءل بوش.

وعد روف بالعودة إلى الرئيس بعد تدقيق عدد من الأرقام الأكثر صعوبة بعد مقاربتها مع توقعاته في الدوائر والولايات. همس روف في أذن مساعدته سوزان راستون التي سارعت إلى تسجيل الملاحظة في دفترها في تمام الساعة الثانية والدقيقة السادسة عشرة صباحاً التزاماً بواجبها، قائلاً: "يكاد يفقد صوابه".

تحدث بارتلت مع أحد نواب الرئيس في قناة الفوكس نيوز، قناة الكوابل التلفزيونية المحافظة التي كانت تقديراتها محلقة وكان مديرها التنفيذي روجر إيلز كبير مستشاري بوش الإعلاميين. بدا إيلز هذه الليلة متحلياً بالحذر والتحفظ، ملتزماً بعدم لتحدث المباشر مع البيت الأبيض. غير أن موظف الشبكة الذي تحدث معه بارتلت كان عاكفاً على إيصال رسالة من إيلز إلى روف. في الـ 2000، كانت فوكس الشبكة الأولى التي أعلنت الحالة الملتبسة في فلوريدا، وبالتالي الانتخاب، لمصلحة بوش. أما هذه المرة فإن رسالة إيلز كانت تقول: "لا تريدونني أن أكون أول المعلنين".

كانت ماتالين، وسكوتر ليبي يتحدثان عن إرسال تشيني مع بوش إلى مبنى ريغان حيث كان مؤيدوهما مجتمعين بانتظار حفل الانتصار المتوقع. تعين عليه أن يبقى متيقظاً وجاهزاً للكلام.

قلت: "هيا خذه إلى مكان ما يستطيع فيه أن ينال قسطاً من النوم. لا تتركه يعود إلى البيت".

دخل تشيني إلى مكتبه لينام، في حين ذهبت زوجه، لين، إلى مكتب طبيب البيت الأبيض لتأخذ قسطاً من الراحة.

"اتقيني على علم!" طلب ليبي من ماتالين لدى ذهابها إلى غرفة الحرب.

ردت عليه ماتالين: "وما الذي يمنعك من النزول بنفسك للبقاء على علم؟! ألا تعلم أن المشهد ينطوي على الكثير من اللقطات المثيرة؟!"

عاد بوش نازلاً إلى غرفة الحرب، راح يمشي قتلاً للوقت. في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين كان يتابع دان راظر على شاشة السي بي اس. في أيلول/

سبتمبر كان راظر هذا قد تحدث في إحدى حلقات برنامج **60 دقيقة الثاني** عن أن وثائق الحرس القومي (الوطني) التكساسي بينت أن بوش عومل معاملة خاصة تفضيلية في أثناء خدمته سنة 1968. اتضح أن الوثائق كانت مزورة دون شك.

علق بوش: "قناة السي بي اس رهيبة".

في الساعة الثانية والدقيقة الثالثة والأربعين قال أحدهم إن بوش متقدم بـ 8.3 مليوناً من الأصوات الشعبية على الصعيد القومي.

موجهاً كلامه اللاعز إلى روف قال بوش: "لو كانت الأصوات الشعبية راجحة لما كنت هنا".

سارع روف إلى تذكير الرئيس: "إننا متفوقون على صعيد الأصوات الانتخابية".

تلقى بوش اتصالاً هاتفياً من رئيس الوزراء البريطاني توني بلير. كان الوقت صباحاً في لندن، وكان بلير قد أوى إلى فراش النوم متوجساً من أن بوش كان سيخسر. بل كان شديد الاندهاش حقاً حين اكتشف أن بوش كان لا يزال في حلبة السباق. بله كونه فائزاً محتملاً.

"ظللت الأخير منذ أيام الكلية" قال بوش لبلير. "أنا بحاجة إلى ولاية أخرى".

تحدث روف عن احتمال الحصول على بيان مقترح من بلاكول في أوهايو في غضون نصف الساعة التالي. كان بلاكول هذا، وهو أحد زعماء القوة الطالبية السوداء ممن تحولوا إلى صفوف الحزب الجمهوري، جدالاً فردياً تمرد على نظام الانضباط الحزبي.

قال بوش متأففاً: "أنا رئيس الولايات المتحدة في خدمة وزير للخارجية بلا عقل".

ذرع أرض الغرفة ذهاباً وإياباً، يداه في جيبيه، ماضغاً طرف سيجاره بعصبية. أعلن روف أن الأسوشيتد برس موشكة على إعلان فوز بوش في نيفادا.

"هل أستطيع الحصول على معطفي؟!" قال بوش ساخراً.

أفاد بلاكول بأن من المحتمل ألا يكون عدد الأصوات المشروطة في أوهايو أكثر من 175.000، مما كان يجعل احتمال تغلب كري على تفوق بوش بـ 140.000 صوت متعذراً. غير أن بلاكول لم يكن مستعداً، مع ذلك، لإعلان الفوز.

تحدثت التقارير عن رغبة الشبكات في المبادرة إلى البث المباشر دون الإعلان عن فوز أي من المرشحين.

"لا تستطيع أن تفعل ذلك!" قال روف صارخاً.

في تمام الساعة الثالثة والدقيقة السادسة والثلاثين جرى اتصال بالغ الحساسية من معسكر كري مع كل من روف وبارتلت في البيت الأبيض. كان مايك ماكوري، سكرتير كلنتون الصحفي السابق في البيت الأبيض وأحد أواخر الملتحقين بركب حملة كري، قد بعث برسالة إلكترونية إلى نيكول ديفنيش، مدير الاتصالات في حملة بوش، تحمل تهاني غير مسجلة وتوصي فريق بوش بعدم فرض أي قرار الآن. كان ماكوري يتحدث عن وجوب عدم الضغط على كري من جانب فريق بوش. كان لابد لكري، باعتقاد ماكوري، من أن يقدم على التصرف الصحيح.

قام بارتلت وآخرون بإبلاغ بوش عن الرسالة الإلكترونية ملخصين مضمونها: "سنفعل الشيء الصحيح في الوقت المناسب". أفاد بارتلت بأنهم كانوا قادرين على الوثوق من أن ماكوري كان من شأنه أن يكون في موقع يؤهله لمعرفة ما يفكر به فريق كري، غير أن من الضروري أن يبقوا حذرين من المبالغة في المراهنة على الأمر. أقله، نحن على علم بأن هناك في معسكر كري أناساً يقدمون نصائح عقلانية، قال بارتلت.

من جديد أعلن بوش أنه تعبان وقال: "سأبقى فوق كل الليل. تعالوا لإيقاظي بعد أن تعرفوا حقيقة ما يجري".

في الساعة الرابعة والدقيقة الرابعة والعشرين التفت روف إلى كارد وسأل: "ما التي يتعين علينا فعله؟ الشبكات لن تعلن".

رد كارد أن عليهم أن يعلنوا النصر. كان متوجساً من حصول نوع من الفراغ، قصة فلوريدية أخرى. إنها معركة تخاض على عدد كبير من الجبهات، فمعركة التصور لم تكن أقل شأناً من معركة الأرقام الملموسة. "نعرف أننا كسبنا. علينا، إذن، أن نعلن ذلك".

أيقظا الرئيس وربطاه هاتفياً مع غرفة الحرب.

بيّن كارد وجيم فرانسيس بوضوح أنهما كانا يريان أن من واجب الرئيس أن يذهب إلى مبنى ريغان ويلقي خطاب فوزه. كان من شأنه ذلك أن يكون ضربةً استباقية. وإلا فإن الصحافة كانت ستظل تلوك الوضع حتى الموت. لابد من ملء الفراغ. لابد من

توفير الأخبار. لابد من فرض العنوان العريض التالي: "بوش يعلن النصر!" لابد للإعلان من أن يتحول إلى واقع.

بدا فرانسيس متشدداً. "لن يتردد الديمقراطيون إزاء تحويل أوهايو إلى فلوريدا" سيتصرفون وكأن الفرق هو 500 صوت بدلاً من 150.000." لا مجال لتمكينهم من إفساد المشهد - دوامة إضفاء شرعية، إحصاء، سجالات حقوقية. فهامش الـ 110.000 إلى 150.000 صوت في أوهايو لم يكن فوزاً ساحقاً في الحقيقة، غير أنه كان أكثر من الأصوات الـ 537 التي شكلت الهامش الحاسم في فلوريدا سنة 2000.

من قبل كان روف مؤيداً لفكرة إلقاء خطاب انتصار، أما الآن، في الساعة الرابعة والنصف صباحاً تقريباً، فراح يعيد النظر بالأمر. ما الداعي؟ ممن كان يتألف الجمهور؟ ماذا عن أولئك الموجودين في مبنى ريغان؟ جميع الآخرين كانوا نياماً.

استيقظت ماتالين التي كانت نائمة على أرض غرفة الحرب في الساعة الرابعة والدقيقة الأربعين فجراً تقريباً. في غضون خمس دقائق باتت منخرطة في الجدل.

"ما المغزى؟" سألت ماتالين. إذا بادر بوش الآن إلى إعلان الفوز، فإن الصحافة ستتساءل عما تغير في فترة الساعة أو الساعتين الأخيرة. من شأنها أن تطرح سؤال: "لماذا الآن لا قبل ساعة واحدة؟" قد تبقى وسائل الإعلام محصورة بالأمر. من شأن غياب السبب أن يصبح جزءاً من سياق الخبر. ما الذي كان سيقال؟

كان قد جرى استدعاء ستيف هادلي إلى غرفة الحرب من غرفة روزفلت، حيث كان ينتظر ويتابع، متنقلاً جرياً بين الحين والآخر إلى مكتب روف إثباتاً للوجود. بدر هادلي، وهو تجسيد للحذر عادةً، إلى التدخل بقوة. كان من شأن أي إعلان استباقي للنصر أن يشكل أسوأ تصرف يمكن للرئيس أن يقدم عليه، حسب رأيه. لا تحاصروا كري. لا تضغطوا عليه. في غضون الساعتين أو الثلاثة الآتية لابد للأرقام التي كان روف قد رآها من أن تبرز بوضوح أمام عيني كري. فالهوامش كانت كافية، بل كبيرة في أوهايو. "إذا حاصرتموه فإن الأمر سينتقل إلى المحامين فتحصل الورطة".

وافقه بارتلت. تلك بالضبط هي النصيحة التي كانوا قد تلقوها من ماكوري. كان على الرئيس أن يلتزم الصمت. وتأكيد النصر كان يجب أن يصدر إما عن وسائل الإعلام، يُفضَّل المرئية، أو من خلال إقرار بالهزيمة من جانب كري، وهذا أفضل بما لا يقاس. ثم أطلق بارتلت بالون تحذير بالغ الضخامة. قال:

"على امتداد سبع ساعات ونيف كان جون كري رئيساً للولايات المتحدة في ذهنه، وكان يعامل كما لو كان هو الرئيس فعلاً، أنا واثق مما أقوله".

كرر هادلي توصيته: "لا تحاصروه!"

تدخلت ماتالين: "إنه على صواب. محق هو مئة بالمئة".

واصل جيم فرانسيس جداله المحموم دفاعاً عن فكرة الإعلان الفوري للانتصار. لابد من توظيف ميزة الأصوات الـ 150.000 الزائدة. ما معنى لا تحاصروا كري؟ ذلك هو بالتحديد ما كان يتعين عليهم فعله. فعلوه من بداية الحملة إلى نهايتها. ما الداعي إلى التوقف الآن؟ كان من شأن قيام رئيس الولايات المتحدة بإعلان النصر أن ينطوي على معناه الخاص وأن يجعل الأمور أكثر صعوبة بالنسبة إلى كري.

سرعان ما احتدم النقاش الحاد بين فرانسيس وبارتلت.

قال بارتلت: "ثمة صندوق في زاوية كل جهاز تلفزيون في أمريكا، ذلك لا يشي بالعدد المطلوب من الأصوات الانتخابية". كان بحاجة إلى 270 للفوز والشبكات أزهرت 269 فقط. "سيرى الناس أننا نتباهى ونفرط في الادعاء إذ فعلنا هذا". أوحى بأن الجميع كانوا سيطمئنون إلى نبأ الفوز. لا جدال في ذلك. "ذلك معلوم. لنتحل بالصبر!"

"لا" قال فرانسيس ثانيةً، كان الواقع يشي بتكرر سابقة فلوريدا، احتمال تلك المعارك الحقوقية، تلك القضايا القانونية والمحاكم من جديد. كان لابد لهم من أن يفعلوا أي شيء وكل شيء لتجنب ذلك. "سيقومون باستيلاد عدد من المحامين عبر الأبيب مع حلول الساعة السابعة صباحاً، نعم محامين دائبين على الحديث عن أساليب استغلال الوضع، حَلَب النملة؛ إيقاف عقارب الساعة، وسيبادرون إلى عرض الفيلم. وسيقومون بانتزاع النصر منا".

عبر سمّاعة الهاتف كان بوش يغمغم، موافقاً بوضوح. كان بارتلت على يقين تام بأن من شأن الإيحاء بأن أحدهم موشك على أخذ شيء من بوش أن يتمخض عبر إبراز المقاتل.

عدد غير قليل من الموجودين في غرفة الحرب ظنوا بأنهم كادوا يسمعون صوت ارتداء بوش لمعطفه.

سارع بارتلت إلى إطلاق الذخيرة الأقوى التي استطاع اجتراحها قائلاً: "لا تستطيع أن تخرج إلى الناس وتضع التاج على رأسك بيدك أنت؛ لن تستطيع ذلك".

ساد الصمت لثانية أو اثنتين.

"لورا تقول الشيء ذاته" رد بوش عبر الهاتف. "لورا أيضاً لا ترى أن علي أن أظهر".

كان كارد مستمراً في الضغط عند الساعة الرابعة والدقيقة التاسعة والخمسين صباحاً.

أخيراً قال بوش: "لنفعل ذلك غداً!"

اعتقد هادلي بأن تلك كانت أروع لحظات بارتلت، لحظة وضع حد للجدل العقيم. كان من شأن ظهور بوش أن يفرض مجابهة ضد الزحف إلى مبنى ريغان، قال هادلي لاحقاً لزملائه مازحاً: "قد يكون ذلك أجدى شيء فعلته في أربع سنوات".

برأي كارد تعين، أقله، على أحدهم أن يقول شيئاً ولاسيما للحشد الموجود في مبنى ريغان، في حال عزوف بوش عن إعلان الانتصار. تم ترشيحه للاضطلاع بالدور. وصل إلى مبنى ريغان في تمام الساعة الخامسة والدقيقة الثلاثين صباحاً.

خاطب كارد الحشد الخفيف الذي كان قد واظب على البقاء قائلاً: "نحن مقتنعون بأن الرئيس بوش كسب معركة إعادة الانتخاب بهامش لا يقل عن 286 صوتاً انتخابياً كلياً. كما انه متمتع بهامش يزيد على 5.3 مليوناً من الأصوات الشعبية".

قَدَّمَ غصنَ زيوت بدا حذراً ومدروساً قائلاً: "قرر الرئيس بوش أن يمنح السناتور كري احترام المزيد من الوقت لتأمل نتائج هذا الانتخاب. سيدلي الرئيس ببيان لاحقاً هذا اليوم".

كان كري على رأس عمله في السابعة صباحاً، منخرطاً في مناقشة الأمور مع ثلاثة من كبار مساعديه في الحملة. ثمة قرارات كان عليه أن يتخذها.

أولاً، كان يستطيع أن يطلق تحدياً في أوهايو من منطلق الأصوات المشروطة. غير أن عدد هذه الأصوات كانت موازية تقريباً لهامش تفوق بوش في الولاية، مما كان سيوجب على كري أن يحصل عليها جميعاً افتراضياً.

ثانياً، كان يستطيع الاعتراض على أوهايو بالاستناد إلى مزاعم حصول مخالفات في عملية التصويت.

أما الخيار الثالث المتاح لكري أن يعاينه فكان الأكثر إثارةً. كانت حملته متوغرة على ملف يبين أن الناس في عدد من الدوائر الديمقراطية بأوهايو انتظروا ثلاث، أربع، خمس بل وحتى سبع ساعات كي يدلوا بأصواتهم. أما في الدوائر الجمهورية فلم يكن

ثمة أي طوابير، على ما يبدو، وكان الناخبون ينتهون من عملية التصويت في غضون خمس، بل وحتى ثلاث دقائق. بعض الدوائر الجمهورية كانت مجهزة بثماني آلات تصويت لكل منها، في حين لم يكن في أي دائرة ديمقراطية سوى آلة واحدة. كان هناك خل حقيقي في التوازن.

توهم كري أن من شان الأمر أن يكون خطيراً جداً. كان يستطيع أن يطير إلى أوهايو مع حاشيته الإعلامية كلها، أن يقف مع حشد كامل ممن حُرموا من حق التصويت. كان بوسعه أن يعسكر، حرفياً، في آكرون، ربما، مع قيام شريكه في السباق، السناتور جون ادواردز، بالاعتصام في كولومبوس.

كانا يستطيعان أن يقولا: "هذه الانتخابات زُوِّرت في أوهايو والولايات المتحدة الأمريكية تستحق رئيساً للجمهورية منتخباً انتخاباً سليماً وصحيحاً. ونحن ذاهبان إلى المحكمة لإقامة الدعوى بموجب المادة ذات العلاقة في الدستور. جرى حرمان الناس من حقهم في الإدلاء بأصواتهم. ونحن نريد تمكين أوهايو من انتخاب رئيس للجمهورية في غضون أسبوع من الآن".

كان من شأن بوش والبيت الأبيض ومعهما الجمهوريون أن يقعوا في ورطة معنوية وأخلاقية هائلة باعتقاد كري. ما الذي كان بوش سيستطيع فعله؟ محاربة فكرة عقد انتخابات نزيهة وعادلة لرئيس الجمهورية؟

غير أن التأثير الأكبر في كري تمثل بعدد الأصوات المشروطة. لم يكن ثمة ما يكفي منها لتمكينه من التفوق عددياً.

أدرك كري أن العراك كان من شأنه ترك البلاد في حالة فوضى بالنسبة إلى الانتخابات الرئاسية التالية. إنه قرار تعين عليه أن يتخذه بنفسه. قرر أن يقبل بالنتيجة. أفاد في إحدى مقابلاته اللاحقة بأن "فعل العكس كان من شأنه أن يبدو شخصياً. كان من شأنه أن يبدو فاسداً وقائماً على الرشوة. كان من شأنه أن يتجلى بوصفه الخطأ بعينه ونحن نخوض سباقاً للوصول إلى منصب الرئاسة في الولايات المتحدة. ذلك هو ما أوحى به لي ضميري. قال لي تحديداً: "اسمع، هذه هي الرئاسة". بمقدار ما كافحنا من أجلها وبمقدار ما نحن حريصون على ما كافحنا من أجلها، ثمة مصالح أكبر يتعين على المرء أن يفكر بها". من المفارقات أنه، رغم أنه لم يكن موشكاً على أن يصبح رئيساً للجمهورية، قال: "كان ثمة نوع من اللحظة الرئاسية في الأمر إذا

شئت، وقد انتابني الإحساس السليم بأن ما يتعين عليّ فعله في تلك اللحظة تمثل بعدم إطالة أمد المعاناة والعذاب وعدم تعريض البلاد لأي خَضَّة بصرف النظر عن مدة ضخامة رهاناتنا الشخصية جميعاً".

أضاف كري: "استناداً إلى الأرقام التي حصلنا عليها، كان سيتعين علينا أن نعترض على أساس الانتخاب. وعلى الرغم من إحساسي القوي بأنه عانى من عيوب خطيرة، فإنني لم أتردد في اتخاذ القرار الأساسي القاضي بأن الإقدام على ذلك كان هو التصرف الخطأ".

◎ ◎ ◎

نحو الساعة العاشرة والنصف من صباح يوم 3 تشرين الثاني/نوفمبر، بادر كري إلى الاتصال بكاهيل ليقول لها إنه لم يكن عازماً على نقض الانتخابات في أوهايو أو في أي مكان آخر. كان يريد الاتصال ببوش والاعتراف بالهزيمة. سألها: ما رقم الهاتف؟"

أحد المساعدين في البيت الأبيض قام بربط كري مع بوش. كان روف، كارد، هيوز، بارتلت وغيرسون في المكتب البيضوي.

بادر كري إلى الكلام قائلاً: "تهانينا سيادة الرئيس".

رد عليه بوش: "لقد كنت خصماً عنيداً جداً، جداً. بالفعل جعلتنا نخوض سباقاً حقيقياً. آمل أن تكون فخوراً بالجهد الذي بذلته. يتعين عليك أن تكون".

"إنْ هي، سيادة الرئيس، إلا لحظة مناسبة لتبادر الأمة إلى توحيد كلمتها ورص صفوفها. الناس متشوقون لذلك. آمل أن تنتهز المناسبة لتخاطب الأمة وتجمع الناس وأن تتواصل فعلاً مع الآخرين. أنا مستعد للعمل معك من أجل إنجاز الأمور التي يتعين علينا إنجازها".

عبّر بوش عن أطيب تمنياته هو وتمنيات لورا لكل من كري وزوجه والعائلة. صدر عن الاثنين عدد إضافي من عبارات المجاملة اللطيفة والدافئة، ثم ما لبثا أن تودعا

أعاد الرئيس الهاتف إلى مكانه وبدأ يبكي، بكاءً عميقاً، متشنجاً. وساعياً إلى التماسك، راح يطوف ويعانق جميع من في الغرفة معه: روف، هيوز، بارتلت كارد وغيرسون.

غمغم روف: "تهانينا". انهار وأخفق في قول أي مزيد. غيرسون أيضاً بكى.

"إنها هدية بالغة الروعة قدمّتَها لأبيك". قال كارد للرئيس.

ثم ما لبث بوش أن اقتادهم إلى خارج المكتب البيضوي وصولاً إلى مكتب تشيني في آخر الممر. غير أن نائب الرئيس كان في غرفة الوضع، فتعين على غيرسون أن يتصل به ليقول له إن لدى الرئيس أخباراً.

جاء تشيني والتقيا في منتصف الممشى، حيث أبلغه بوش بمخابرة كري الهاتفية.

"أعرف أنك لست من أولئك الذين يحبون العناق". قال بوش وهو يصافح نائب الرئيس.

obeikandl.com

obeikandl.com

32

لتقى بوش وزراءه صباح اليوم التالي، يوم الخميس الواقع في 4 تشرين الثاني/نوفمبر.

قال الرئيس: "هذه الانتخابات لم يكسبها جمهوريو أندية الأرياف. لست متأكداً من أنهم موجودون. ثمة ديمقراطيو أندية أرياف فقط. هذه الانتخابات ربحها أناس يدهبون إلى العمل مصطحبين زواداتهم. لو كان مقترعو هذه الانتخابات هم عناصر الشرطة ورجال الإطفاء لحصلت، باعتقادي، على أكثرية ساحقة - لحصلت على نسبة 60٪ بالمئة من الأصوات دون شك".

كان بوش قد اخترق صفوف طائفة جديدة من ناخبي الطبقة الدنيا والمتوسطة المهتمين بالأمن. وحسب اعتقاده، فإن أعداداً أكبر من الناس باتت قلقة إزاء الإرهاب في المقام الأول بعد 9/11 خوفاً من الهجوم التالي. قبل غزو العراق، كان بوش قد استغل الخوف إلى الحدود القصوى، زاعماً أن العراق قد يوجه ضربة نووية. راح بوش يحذر قائلاً: "لا نستطيع انتظار البرهان الأخير - سبطانة المسدس التي تفوح منها رائحة البارود - قد يأتي البرهان على شكل سحابة كبرى شبيهة بنبتة فطر عملاقة". وفي مناسبات أخرى كان قد تحدث عن هجوم عراقي قادر على قتل "أعداد لا تحصى من الآلاف" و"إحداث يوم رعب لم يسبق لنا أن عرفنا مثيلاً له".

في الحملة، كان فريق إعادة انتخاب بوش قد حقق نجاحاً مثيراً في صياغة قضايا قادرة على جعل الخوف من الإرهاب لدى الناخبين على أعلى درجة ممكنة من الموسمية. كان الإيحاء الأوضح والأكثر مباشرة بأن من شأن إعادة انتخاب بوش أن ينقذ أمريكا في حين أن من شأن انتخاب كري أن يفضي إلى هلاك البلد الكامل، قد صدر عن تشيني في 7 أيلول/سبتمبر، حين حذر قائلاً: "من الضروري ضرورة مطلقة أن نقوم، بعد ثمانية أسابيع من اليوم، في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر، بالاختيار الصحيح. لأن من شأن وقوعنا في خطأ الاختيار أن يفضي إلى تعريضنا لخطر تلقّي الضربة من جديد، إلى أن نتلقى ضربة ستكون مدمِّرة من وجهة نظر الولايات المتحدة".

كانت حملة بوش قد صعّدت قصداً وصولاً إلى خط الاتجار بالخوف، بل وتبين الأحداث أنها كانت قد تجاوزت ذلك الخط الأحمر. ونتائج الانتخابات أثبتت أن الخصة كانت ناجحة.

بعد الانتخاب بيومين طار بوش والسيدة الأولى إلى كامب ديفد. كان كارد، زوجه: كاثي، ورايس معهما.

بوصفه رئيساً لجهاز العاملين لدى رئيس انتُخب حديثاً، كان بعض المجد المنعكس عن النصر من حصة كارد. كان في موقع قوي. أخيراً كان أمر ما قد صح.

غير أن كارد كان على يقين بأن أشياء أخرى كانت خاطئة، بل وخاطئة على نحوٍ خطير. فالمعلومات الاستخباراتية التي أظهرت صدام حسين متوفراً على ترسانات أسلحة دمار شامل تكشفت عن كونها كلاماً فارغاً. كان قد جلس في المكتب البيضوي قبل الغزو بثلاثة أشهر واستمع إلى تقرير وكالة الاستخبارات المركزية عن أسلحة الدمار الشامل العراقية. كان التقرير ضعيفاً وغير مقنع، وقد راوده القلق حول ألا يكون أي "هناك هناك". إلا أنه ما لبث، بعد ذلك، أن شعر بالارتياح إزاء تأكيد تنت أن قصة أسلحة الدمار الشامل لم تكن إلا "خبطة عشواء". تساءل كارد عما إذا كان قد فعل ما يكفي. بقي فخوراً بنوعية تدفق المعلومات على الرئيس إلا أن المعلومات ذاتها كانت زائفة مئة بالمئة.

كان الرئيس قد سبق له أن فاتح كارد عن إحداث تغييرات كثيرة للفترة الثانية – بعض الموظفين الجدد في الوزارات، بعض كبار أركان جهاز العاملين في البيت الأبيض. كان بوش قد ألمح إلى إيجابيات التغيير، مع أن كارد كان واثقاً من كون التغيير مناقضاً لطبيعة بوش. بقي الرئيس مولعاً بالأحذية القديمة المريحة. كان جهاز العاملين لديه قد تحول إلى نوع من الأحذية القديمة.

ذهب بوش وبرفقته كارد إلى مكتب الرئيس في كامب ديفد.

بدأ كارد الكلام قائلاً: "تريد أن تحدث تغييرات كثير. لعل أفضل إشارة تطلقها للدلالة على أنك جاد حول إحداث التغييرات هي أن تبادر إلى تغيير رئيس جهاز العاملين لديك. إذا لم تقم بتغيير رئيس جهاز العاملين في البيت الأبيض، فإن جميع الآخرين سيفترضون عدم وجود أي تغيير".

سأله الرئيس: "هل تخطط لترك المنصب؟"

"هوذا السؤال الخطأ" رد كارد. "ليس ذلك هو السؤال الصواب. فالسؤال هو: ما الذي ينقصك لتنجز ماذا مما أنت بحاجة إلى إنجازه، في الفترة الثانية؟ قد لا أكون أنا من أنت بحاجة إليه".

كان كارد أكثر ثقة من الأكثرية بأن عروض الاستقالة هذه لم تكن في الغالب جدية. لم يكن العرض أكثر الأحيان سوى أسلوب لطرح سؤال: أمازلت معجباً بي؟ وعظراً للمخاطر، أحس كارد بأن عليه أن يتجاوز ما هو شخصي.

أضاف كارد: "زواجك من لورا كان تحولاً إلى الأفضل أو الأسوأ. معي أنا التحول إلى الأفضل فقط. وإلا فلست هنا".

قال بوش: "أريدك أن تبقى".

رد عليه كارد: "يتعين عليك ألا تفعل. يجب ألا تطلب مني البقاء. من الخطأ أن تطلب مني ذلك".

بدا الرئيس عزوفاً. أفاد بنزوعه إلى الانتهاء بسرعة، وإلى الارتخاء واللعب قليلاً. شعر كارد بأن حملة إعادة الانتخاب كانت "عبئاً عاطفياً" بالنسبة إلى بوش.

"سمع أرجوك" قال كارد "ثمة عدد كبير من الخيارات الجيدة أمامك. ومن غير الجائز أن يكون نوع من الافتراض بأنني سأبقى، ولاسيما إذا كنت تتحدث عن رغبتك في إحداث سلسلة تغييرات".

أخرج كارد دفتر نابض 8.5 × 11 بوصة، بسماكة نصف بوصة وغلافه أزرق. كان يسميه "دفتر الباص". على صفحات مستقلة كانت ثمة قوائم بأسماء بدائل محتملين لجميع المناصب الإدارية الرفيعة بما فيها منصبه. لم تكن الأسماء مرتبة وفقاً لأي نظام. أبقى كارد الدفتر في درج مكتبه بالبيت الأبيض وقام، بين الحين والآخر، بإضافة أسماء وشطب أخرى. تعمد استخدام دفتر مدرسي، دفتر اشتراه من جيبه، كي لا يُعد وثيقة حكومية أو سجلاً رئاسياً قد يجري إدخاله في التاريخ ذات يوم. كان الدفتر خصاً وشخصياً، نقطة على السطر.

كان ثمة 54 بديلاً عنه هو في منصب رئيس جهاز العاملين في البيت الأبيض موزعين على ثلاث خانات عاكسة لأساليب ومقاربات مختلفة.

هم بوش بالوقوف.

"لا، لا، لا، اجلس" قال كارد بلطف. كان يعلم أن من شأن هذا أن يكون حديثاً مصمماً لإرضائه هو أكثر من إرضاء بوش. "أرجوك، اسمع وأنا أستعرض هذه الخانات وهذه الأسماء".

أنموذج رئيس جهاز عاملي البيت الأبيض الأول كان مدير جزئيات تفصيلية – قَبْضة مُحْكمة، شخص يعلن عدم جواز وصول أي شخص أو أي ورقة إلى الرئيس دون معرفة رئيس جهاز العاملين وموافقته. كلاهما كان يعرف أن مثال هذا الأنموذج كن متجسداً في حاكم ولاية نيوهامبشاير جون سنونو، ذلك الرئيس الإمبراطوري، الصاخب الشهير لجهاز العاملين خلال الأعوام الثلاثة الأولى من فترة بوش الأب الرئاسية.

كان الأنموذج الثاني متمثلاً بأنموذج رئيس الوزراء – خبير في إدارة [البرلمان]، عاقد صفقات، مفاوض وشخص يعرف كيف يخطط ويسوس ويجيد التعامل مع كل من الكونغرس، وسائل الإعلام والعالم.

أما الأنموذج الثالث والأخير فقد كان خبير تسهيلات – دائم الانشغال بتنفيذ طلبات الرئيس، شديد الحرص على إبقاء المجلس والجهاز متركزين على برنامج الرئيس وجدول أعماله. وقد كان هذا هو أنموذج كارد.

في الحقيقة لم يكن بوش راغباً في ممارسة هذه اللعبة.

تابع كارد لعبته قائلاً: "جون بولتون". فهذا الأخير الأعزب البالغ 49 عاماً من العمر والمعروف بأنه رجل تنظيم، كان نائب كارد خلال بضع السنوات الأولى من الإدارة. وكان الآن مدير مكتب الإدارة والموازنة. كان قد أدهش الجميع بقدرته على العمل الدؤوب والشاق.

ألمح بوش إلى أن بولتون خيار محتمل.

ثم قرأ كارد اسم "دون ايفانس".

"لا" قال بوش. وزير التجارة ايفانس كان أفضل أصدقاء بوش التكساسيين في واشنطن. وافقه كارد على أن الرئيس يجب ألا يختار أفضل أصدقائه.

"آل غونزاليس" قرأ كارد، مشيراً إلى مستشار البيت الأبيض.

بدا بوش مضمراً خططاً أخرى بالنسبة إلى غونزاليس.

تابع كارد القراءة، دون أن يحصل على أي رد فعل خاص من بوش: هارييت ميرز، نقيبة مستشار البيت الأبيض وإحدى المفضلات عند بوش، وسكوتر ليبي، رئيس جهاز العاملين عند تشيني.

"لاري ثومبسون" اقترح كارد. كان هذا نائباً عاماً سابقاً، استقال في آب/أغسطس 2003. بدا بوش مهتماً بذلك الاحتمال.

"ماذا عن رونالد بتْس؟" سأل كارد. كان بتس أحد زملاء بوش في الدراسة بجامعة ييل وأحد كبار المستثمرين في نيويورك وعضواً في فريق بوش الذي كان يملك فرقة تكساس رينجرز للبيزبول.

"لا".

"جيم فرانسيس". اقترح كارد.

"لا".

"إد غِلِسْباي" قرأ كارد. كان هذا رئيس اللجنة الجمهورية القومية.

مرة أخرى بدا بوش مهتماً، غير أن أياً من الأسماء لم يكن حتى اللحظة قد أثار قدراً كبيراً من الدهشة. بدا ميالاً إلى فكرة واحدة، اختيار حاكم ولاية حالي أو سابق. فجورج باتاكي، حاكم نيويورك، فرانك كيتنغ، حاكم أوكلاهوما السابق، وجون انغلر، حاكم ميتشغان السابق كانوا ممن عرض كارد أسماءهم.

"كارن هيوز" حاول كارد.

"غير ممكن" ألمح بوش.

"كارل روف".

"من غير الممكن أن يكون رئيس جهاز عاملين".

"كوندي رايس".

كانت لدى بوش خطط أخرى بالنسبة إليها.

قرأ كارد أسماء بعض أعضاء كونغرس سابقين: كريس كوكس من كاليفورنيا، فين فيبر، بل باكسون. قام أيضاً باقتراح اسم السناتور السابق فرد ثومبسون من تنيسي التي كان نجم مسلسل القانون والنظام التلفزيوني.

"أراغب أنت في البقاء؟" سأل بوش أخيراً.

"مطالب أنت بإنجاز أشياء كثيرة في الفترة الرئاسية الثانية" أجاب كارد. "إذا كنت ترى أنني أستطيع أن أساعدك في ذلك فسوف أبقى". وذكر الرئيس بأن زوجه كاثي كانت شريكته. ثم قال: "إذا لم تكن زوجي طرفاً في هذه العملية، فلن أبقى".

"أنا سأفاتح كاثي" قال بوش.

"ما من رئيس فترة ثانية يتحول إلى بطة عرجاء" قال كارد. "تبقى المسألة متركزة على: متى وكيف تأتي العواقب؟" كان لابد لبوش من أن يطمئن إلى التحكم بذلك بأكبر قدرٍ ممكن.

كان بوش عازماً على اعتماد جدول أعمال كبير للفترة الثانية.

نبه كارد إلى أن الأمر سيكون أقل ارتباطاً بمنظور الرئيس لأن هذا لم يعد مهماً صحيح أن وسائل الإعلام ستكون ذات منظور، غير أن هذا أيضاً سيكون أقل أهمية لعله أكثر ارتباطاً بالجمهور الذي من شأنه أن يرد على دعوته، أن يستجيب لندائه إيجاباً أو سلباً: الكونغرس، جمهور مؤيديه، قاعدته. كان سيتعين على رئيس جهاز العاملين أن يطمئن إلى استجابة تلك القطاعات والشرائح. أضاف كارد أن هناك مجالاً لالتقاط الأنفاس. بعد أن تمت إعادة انتخابه وفي استحالة السعي إلى إعادة انتخاب جديدة، كان من شأنه أن يجسد شخصية رجل دولة لفترةٍ غير قابلة للتحديد.

كانت الساعة الخامسة مساءً حين قاما بلملمة أطراف حديثهما. بعد قليل اجتمع الناس للعشاء. انتحى بوش بكاثي جانباً. ثم ما لبث أن اقترب من رئيس جهاز العاملين عنده. قال: "كاثي مرتاحة".

ثق ولكن تأكد! ذهب كارد إلى زوجه. قالت:

"إذا كان هذا ما تريد فعله، والرئيس يريدك، فلا اعتراض عندي، أنا موافقة".

كانت "مرتاحة" و"موافقة"، على مستوى أدنى بكثير من التأييد مئة بالمئة.

كان بوش قد لاحظ تحادث الزوجين كارد. فيما كان رئيس جهاز العاملين ماشيٌ إلى داخل الغرفة حيث كان سيتم تناول العشاء، استوقفه الرئيس عند المدخل قائلاً: "حسناً، سنفعل ذلك. نعم سننجح في الأمر" وهو يربت على ظهر كارد.

سرعان ما وجد كارد نفسه متسائلاً، لدى النظر إلى الخلف، إلى ذلك اليوم في كمب ديفد، عما إذا كان طلب الرئيس منه البقاء، وقبوله هو بذلك، خطأ أكبر مما اعتقده في البداية. هل كان رئيس جهاز عاملين عتيق من مخلفات الماضي مؤهلاً لأن يصبح عنصر تغيير؟ ولما يمض وقت طويل حين صار كارد يطرح السؤال على الرئيس بالذات مباشرةً. ما مقدار التغيير المطلوب؟ لا تغيير في الأشخاص، في عناصر الملاك فقط، بل في السياسات والخطط، وتمثل السؤال الأكبر عن الاتجاه الذي كانت تسير فيه رئاسة بوش. ما القرارات التي لابد من العودة إليها وعنها؟ وبالطبع فإن الجزء الأكبر من الماضي كان متمثلاً بالحرب في العراق، بالأشهر الثماني عشرة من قرارات المتابعة. مَنْ غيرُه كان شديد الالتصاق بتلك القرارات السابقة المرشحة لأن تكون جزءاً من مستقبل جرى تغييره؟

في اليوم التالي، يوم الجمعة، التقى بوش رايس بعد الظهر. قال إنه كان قد أطال التفكير بفترته الثانية، وكان يريدها أن تحل محل باول وزيرة للخارجية.

ردت رايس: "يشرفني أن تفكر بي من هذا المنطلق" مضيفةً جميع الأشياء الصحيحة عن أهمية ثقته بها وتعويله عليها. ثم انتقلت إلى ما كانت تفكر به هي: "بالفعل أنا أفكر بالاستقالة يا سيادة الرئيس".

"لا" قال بوش. لابد من النظر إلى ما هو مطلوب عمله؛ إلى زحمة المهمات المعلقة التي تنتظر الإنجاز.

ثمة العراق – حربهم. ثمة اجتراح سلام ما في الشرق الأوسط – أملهم.

"حسناً" سألت رايس "هل تعني أنك ملتزم بالسعي إلى قيام دولة فلسطينية في هذه الفترة من الزمن؟" كان ذلك أحد موضوعاتها الأثيرة.

أفاد بوش بأنه كان ملتزماً، وجرها إلى مناقشة جدية لجملة هموم وفرص أخرى.

كان الوقت ساعة متأخرة من بعد الظهر، وكانت الشمس موشكة على الغروب خلف جبال كاتوكتين. لم تكن رايس قد خططت لمثل هذه المناقشة، وكانت لا تزال مرهقة من الحملة. قالت: "بصرف النظر عما أفكر به أنا، فإن ستفن هادلي كان الشخص الطبيعي المؤهل لخلافتي مستشاراً للأمن القومي".

لم يصفح بوش عما إذا كان موافقاً.

تابعت رايس: "لا أعرف أحداً أكثر من ستيف توازناً وإخلاصاً وذكاءً وقدرةً على حل المشكلات". لاحظتْ أن الرئيس كان واضح الثقة بهادلي، وفي غياب مثل تلك الثقة كان من شأن الرئيس أن يتعرض لما عانى منه ريغان: ستة مستشاري أمن قومي خلال فترتين رئاسيتين.

"سيادة الرئيس، ربما أنت، كما تعلم، بحاجة إلى أناس جدد" واصلت رايس كلامها. "ليس فقط، كما تعلم، تحريكهم من مكان إلى آخر، تبديل أمكنتهم. أنت بحاجة إلى أناس جدد لأننا تعرضنا لهجوم إرهابي، لأسوأ هجوم إرهابي في تاريخ أمريكا. خضنا حربين. قد تكون، أنت سيد العارفين، بحاجة إلى فريق جديد قادر على خدمتك".

رد عليها بوش: "لا تحدثيني عما أنا بحاجة إليه".

"سيادة الرئيس، المسألة الأولى بالنسبة إلي هي ما إذا كنت باقية أم لا". كثيرون كانوا يقولون إنها راغبة في أن تحل محل رمسفلد. "ليست القضية قضية إن ترسلني، بل هي قضية أبقى أو لا أبقى".

تحدثا مدة نصف ساعة أخرى. حاول بوش إرجاع الحديث إلى ما يمكن عمله في الفترة الثانية. باستمرار كان صاحبَ اليد العليا والقول الفصل في علاقتهما، وكانت رايس، على نحوٍ شبه دائم، قد فعلت ما أراده. غير أنه لم يستطع جعلها تقبل.

أخيراً قالت: "سيادة الرئيس، يتعين علي أن أفكر بالموضوع".

"طبعاً، لابد لك أن تفكري بالأمر".

نهاية الأسبوع، قالت رايس لبوش "صدقني، مازلت عاكفة على التفكير بالأمر. غير أنها أحست بأن لغة جسدها بدت أكثر استعداداً للقبول. أما في اليوم التالي فقد كانت شديدة الانفعال إزاء أفق تولي منصب وزيرة الخارجية.

أبلغت بوش موافقتها قائلةً: "أيوه [نعم]، إذا كان ذلك ما تريد أنت أن أفعله".

في العراق، الحرب متواصلة جَرْجَرَةً. الفلوجة باتت بؤرة إرهاب مصدِّرة للسيارات المفخخة إلى قلب بغداد كما إلى سائر أرجاء البلاد. قام الجنرال كيسي بحشد قوة كبيرة مؤلفة من ست كتائب اقتحام أمريكية مدعومة بعدد مماثل من القوات العراقية ونجح في عزل المدينة وتطويقها. جل السكان المدنيين أخلوا المدينة، في حين أبقى الطوق المحكم الإرهابيين المشبوهين محاصرين في الداخل. كانت الرسالة تقول إن كيسي كان، أخيراً، قد قرر تولي أمر العناية بمسألة الفلوجة.

تكاثرت الوفود السنية المتعاقبة التي زارت رئيس الوزراء المؤقت العلاوي حاملة رسالة واحدة: "حذار الفلوجة!" أما الرسالة الصادرة عن واشنطن فكانت تقول: "يرجى حادثة نَجَف أخرى، تنتهي بتسوية سلمية".

غير أن الحل السلمي لم يأت. ومع انتهاء الانتخابات الرئاسية الأمريكية، وكون الانتخابات البرلمانية العراقية على بعد شهرين، قام كيسي ونغروبونتي بإطلاع مجلس الأمن القومي والرئيس على مشورتهما. وحسب رواية أحد الرسميين كانت خلاصة الرسالة: "ليس ثمة أي طريقة لإيصال هذا البلد إلى انتخابات، إنّ من ناحية الأمن أو على صعيد الإيمان بما تعينه هذه المبادرة، إذا لم تحسموا أمر الفلوجة وإذا لم تتعاملوا مع مقتدى. لابد من معالجة هذين الأمرين وإلا فإن البلد سيتفكك".

أعطى بوش موافقته على قيام كيسي بإصدار أمر الهجوم. من كانوا في الفلوجة صمدوا وقاتلوا. والجيش الأمريكي عَدَّ المدينة حقل رمي مثالياً، وقتل ما يتراوح بين 1000 و2000 ممن قيل إنهم متمردون عتاة. فقد الأمريكيون 70 عنصراً - نحو جندي أو عنصر مارينز واحد من كل كتيبة. أما الكتائب العراقية فخسرت كل منها بين 20 و30 عنصراً. وعلى الرغم من أن دورهم لم يكن شديد الأهمية، فإن الصفقة الكبرى تمثلت بعدم هرب العراقيين، أكثرية الكتائب العراقية تعرضت لكمائن عند الخروج، ولكنها واصلت القتال.

في زحمة المعركة تحولت أنظار العرب والعالم نحو باريس حيث كان ياسر عرفات الزعيم الفلسطيني ومعبود ما يعرف بالشارع العربي على فراش الموت. ومثل جميع الأشياء ذات العلاقة بعرفات، كانت القصة دراما طويلة محكمة ومنسقة مع معالجة طبية صاخبة، جدل حول سبب الموت اللاحق يوم 11 تشرين الثاني/نوفمبر، وعملية إعادة جثمانه إلى فلسطين. المسرحية العرفاتية طغت على الجزيرة وغيرها من وسائل الإعلام رغم اشتداد القتال والقتل في الفلوجة، مختزلة القصة أحياناً إلى ما يزيد كثيراً على "أما فيما يخص الفلوجة..".

حاول بوش، رايس وباول أن يفسروا لمختلف القادة العرب سبب اقتناع الولايات المتحدة بضرورة اجتياح الفلوجة ويلتمسوا منهم الوقوف في صف الولايات المتحدة. ومع أن القادة العرب لم يكونوا مؤيدين مئة بالمئة، فإنهم لم يبادروا إلى اتخاذ أي مواقف حازمة ضد الأمريكيين.

في البيت الأبيض بقيت إشارة الاستفهام الكبرى متمثلة برمسفلد. هل يجب أن يبقى؟ تعين على كارد مقاربة المسألة برفق. كان رمسفلد قد عقّد عمل كارد. فرايس وكارد لم يكونا في خانة مسلسل القيادة - خانة المرؤوسين - إذ كان الجميع يعرفون الحقيقة، غير أن مهمة كارد كانت تقضي بخدمة بوش. كان العراق محور جميع الأمور الآن، وكان رمسفلد قد جرى، عملياً، استبداله بوصفه شخصاً مكلفاً بكل شيء ومسؤولاً عن جميع الأمور، أولاً برايس في خريف 2003 حين تولت ملف بريمر، ومن ثم في 2004 حين نصت وثيقة ان اس بي دي - 36 (NSPD-36) على جعل الخارجية الجهة المسؤولة عن قيادة العراق. ومع ذلك فإن العراق بقي يعني، في المقام الأول، العنف والقوة الأمريكية المؤلفة من 130.000 جندي، الموضوعين اللذين كانا من اختصاص رمسفلد دون جدال.

من الواضح أن الرئيس لم يكن ميالاً إلى الإقدام على أي تصرف من شأنه تعطيل المجهود الحربي، وتأثير تغيير رمسفلد لم يكن واضحاً. ما الأثر الذي كان من شأن رحيل رمسفلد أن يتركه على الزخم الإجمالي كما على معنويات أولئك المنخرطين في القتال؟ ولأن رمسفلد كان صاحب نوع من الاحتكار الافتراضي لصلات الدفاع مع الرئيس، لم يكن الأخير، بطبيعة الحال، قادراً على الحصول على المعلومات المستقة والمحايدة اللازمة للإجابة على مثل هذا السؤال.

صدرت أعلى الأصوات المطالبة بالتغيير عن باول. ففي إحدى اللقاءات كان باول قد أبلغ كارد: "إذا ذهبت أنا، فإن دون يجب أن يرحل". أما وقد قرر بوش إحلال رايس محل باول، فلم يكن واضحاً من الذي كان يريده للدفاع.

ثمة كان دعاة آخرون أكثر مكراً كانوا رافعين راية التغيير في الدفاع مثل رايس، هادلي، بل وحتى كارد نفسه، في الأوقات المناسبة. كانت أولى طرق طرح الموضوع على بوش وأفضلها هي القول إنه كان بحاجة إلى فريق أمن قومي جديد من الألف إلى الياء. غير أن رايس كانت قد شكلت، سلفاً، خرقاً لمبدأ الفريق الجديد قاطعة الطريق على مقترحها الخاص.

غير أن كارد قرر، مع ذلك، استئناف المسعى. وبما أنه كان قد عوّم عشرات البدائل عنه هو بوصفه رئيساً لجهاز العاملين، فقد كان، حسب تصوره، قادراً على فعل الشيء نفسه بالنسبة إلى رمسفلد. أخرج دفتر "البدائل" من جعبته.

قائمة بدائل رمسفلد المحتملين كانت مشتملة على بعض الأسماء القديمة مثل السناتور السابق دان كوتس الانديانى، الذي شُطب من القراءة الأولى؛ فريد سميث، مدير إداري اتحادي سابق، كان زميلاً لبوش في إحدى الأخويات القديمة ولكنه بقي عازفاً عزوفاً واضحاً عن تولي أي منصب حكومي؛ نائب وزير الدفاع وولفوفيتز؛ ونائب وزير الخارجية آرميتاج. كان كارد واثقاً من أن من شأن مجرد ذكر اسم آرميتاج في البنتاغون أن يشكل استفزازاً لتشيني، مما جعل الرجل بديلاً زائفاً. أتى كارد على ذكر السناتور جون وارنر، ذلك الجمهوري الفيرجيني الذي كان رئيس لجنة القوات المسلحة؛ السناتور جو ليبرمان، الديمقراطي الكنتيكتي الذي خاض الانتخابات الرئاسية نائباً للرئيس مع غور وكان أحد كبار المدافعين عن الحرب العراقية؛ وحاكم الولاية باتاكي ورئيس البلدية السابق لنيويورك رودي غولياني. ومن المرشحين الآخرين كان كل من السناتور الأريزوني جون ماكين وحاكم كاليفورنيا السابق بيتْ وِلْسُن.

إلا أن كارد كان لديه ما ظن أنه كان يمثل فكرة عظيمة – فكرة مرشح نائم. كان من شأن أفضل بديل من رمسفلد أن يكون جيمس ايه بيكر الثالث، رئيس جهاز العاملين ووزير الخزانة السابق في رئاسة ريغان، ووزير الخارجية السابق لدى والد الرئيس ومستشاره السياسي الرئيس.

قام كارد بعرض الأسماء على بوش خلال بضعة أسابيع، مؤكداً باستمرار حسنات التغيير. إلا أن تركيزه كان على بيكر.

قال كارد "الجميع سيفاجؤون. لا منحنى سعة اطلاع. عظيم. مثير". كان بيكر في الرابعة والسبعين من العمر، أكبر من رمسفلد بعامين فقط. كان قد خدم في قوات المرينز. كان رئيس جهاز العاملين الأفضل في البيت الأبيض برأي كارد. سبق له أن عالج موضوع إعادة عد أصوات فلوريدا لصالح بوش في 2000. قال كارد إنها نصيحتي الوادئة سيادة الرئيس. ضع دبلوماسياً في وزارة الدفاع!

بدا الرئيس في حيرة حقيقية.

لستَ مضطراً للتسرع في اتخاذ أي قرار، أشار كارد.

تحدث كارد مع رمسفلد الذي تكلم كما لو كان مفترضاً عدم وجود أي احتمال للتغيير. كان لكارد مصادره داخل البنتاغون، بل حتى بين بطانة رمسفلد الداخلية، وبادر

إلى الاتصال بهم. ما الذي كانوا يرونه؟ قال أحد المصادر إن رمسفلد كان متوقعاً أن يكون التغيير، إذا حصل، في وقتٍ لاحق، ربما بعد أربعة أو خمسة أشهر. ربما في آذار/مارس. ثم سمع كارد أن رمسفلد كان يريد البقاء إلى حين إنجاز الموازنة. وبعد ذلك، أفاد أحدهم بأنه كان يتوقع أن يبقى حتى حزيران/يونيو. أخيراً، قام أحد مرؤوسي رمسفلد بإبلاغ كارد أن: "شيئاً لن يحدث إلى أن تنتهي الحرب".

كان رمسفلد يريد البقاء. على الدوام كان ثمة شيء ما في أفق العراق – الانتخابات المقبلة في 30 كانون الثاني/يناير 2005، السعي لتشكيل قوات الأمن العراقية، موجة عنف جديدة. من كان مستعداً لإحداث انقلاب في مثل هذه اللحظات الحرجة؟

دخل كارل روف على الخطة بقوة. ثمة كانت جلسة خلافية صعبة في الكونغرس باتت وشيكة. برأيه لم يكن الديمقراطيون في مزاج أي شهر عسل. هل كان من شن جلسة مصادقة أخرى إضافة إلى جلسة استماع تثبيت رايس والترشيح المتوقع لمستشار البيت الأبيض ألبيرتو غونزاليس نائباً عاماً أن تشكل عبئاً ثقيلاً على النظام؟

قام الرئيس بإبلاغ روف: "سأقوم بصرف باءِل. سأُحِل كوندي محله. هل يتعين علي أن أحافظ على بعض الاستمرارية في هذا الأمر؟ أشعر بقدرٍ أكبر من الثقة لدى إحداث التغيير في الخارجية لأن عندي كوندي التي أثق بها. من أين لي مثل هذا المستوى من الثقة بأحد الأشخاص، ولاسيما في زحمة الحرب، في وزارة الدفاع؟" ومن الواضح أن إدارة الحرب في العراق ستكون موضوع جلسات استماع تثبيت لأي شخص يرشحه بوش وزيراً جديداً للدفاع.

وافق روف بأن من غير المرغوب فعل أي شيء من شأنه أن يستثير جلسات استماع حول الحرب. لا، وألف لا، بحق يسوع المسيح.

قال بوش: "إذا كنا بحاجة إلى أن نفعله، فنحن بحاجة إلى ذلك. أما إذا لم نكن بحاجة، فأنت تعلم أن..." عازفاً عن اتخاذ أي قرار ولكن بادياً أنه غير راغب في إحداث التغيير.

تحدث بوش مع تشيني، عاد إلى كارد مع أسئلة وراح يروز مدى تأثير بعض الأسماء الواردة في قائمة كارد، ولاسيما بيكر. غير أن القرار الكبير بقي معلقاً.

كذلك ذهب مايكل غيرسون إلى الرئيس ليطرح فكرة إحداث تغيير في البنتاغون. أفاد غيرسون بأن من الضروري إبدال رمسفلد للدلالة على حدوث التغيير، باعتقاده.

صحيح كانت تعديلات معينة في خطة العراق قد اعتُمدت أو في طريقها إلى الاعتماد وكان رمسفلد جزءاً من ذلك التغيير، وقد يكون من غير الإنصاف استبداله الآن، مهما كانت أخطاؤه؛ غير أن استراتيجية عراقية أكثر فعالية بما لا يقاس كان لابد من وضعها موضع التطبيق. كان لابد للرئيس من أن يفاتح ليبرمان بشأن الحلول محل رمسفلد، حسب توصية غيرسون. وهل ثمة رمز تغيير أفضل من قرين آل غور في الانتخابات الرئاسية؟!

أفاد بوش بأنه كان لا يزال مبهوراً بجهود رمسفلد على صعيد التحويل وبقدرته على الاضطلاع بمهمة التعامل مع مصالح الجيش الراسخة.

اعترض غيرسون قائلاً إن ذلك لا يقوض أساس الدعوة إلى إيجاد قيادة جديدة. ومن منطلق معرفته لمدى أهمية الوفاء بالنسبة إلى بوش قال: "لا يعني الاحتفاظ بأحد الأشخاص مدة أربع سنوات، أربع سنوات ونصف، في منصب كهذا، عدم وفاء يا سيادة الرئيس، والمبادرة بعد ذلك لجملة أسباب، من صنعه هو بأكثريتها، إلى القول بأن من الأخضى إحداث نوع من التغيير، مفهوم؟"

فكرة مثيرة، قال بوش.

كان رد كارد واثقاً من أن غيرسون كان سيفاتح الرئيس عن رمسفلد، وكان قد شجعه. كان ذلك جزءاً من خطة حملته.

وكالة الاستخبارات المركزية كانت مشكلة أخرى. فرئيس جهاز العاملين لدى بورتر غوس، بات موري، تصادم بعنف مع نائب المدير المختص بالعمليات ستفن كابس ونائبه، ميكل سوليك، في تشرين الثاني/نوفمبر 2004. كان كابس وسوليك يديران جملة العمليات السرية والخفية لصالح الوكالة في قلب مساعي محاربة الإرهاب. أقدم كلاهما على الاستقالة محدثين عاصفة داخلية.

رتب كارد موعداً آخر لمقابلة غروس في لانغلي. لم يكن كل ما كان يسمعه كارد سيئاً، غير أن الفوضى بدت مقلقة. تلك بالتحديد كانت الخَضّة التي لم تكن مؤسسة عليها أن تتركز على عملها بحاجةٍ إليها.

أصر غروس على أنه كان قد فعل الشيء الصحيح مع كل من كابس وسوليك.

أمضى كارد نصف نهار مشغولاً بتلقي التقارير، طرح الأسئلة، التنقل بين أجنحة المبنى، وعقد الأمل على رفع المعنويات. حاول التعبير عن التقدير والاحترام لأولئك

الذين هم على الجبهة الأمامية في الحرب على الإرهاب. إلا أنه غادر المكان غير واثق ما إذا كان قد ساعد أم تسبب بالأذى.

هادلي، الذي كان الآن في السابعة والخمسين من العمر، كان يفكر بالتغيير. أراد الخروج من الحلبة. فمع اقتراب نهاية الفترة الرئاسية الأولى، أجرى حوارين مع آرميتاج عن فضائل الرحيل.

قال آرميتاج إن من شأن أسوأ الأشياء بالنسبة إلى أي نائب أن يكون الترفيع إلى موقع القمة. حذره آرميتاج "إياك أن تفعل!"

عبر هادلي عن الموافقة. فالمنصبان الأول والثاني مختلفان، يتطلبان مهارتين متباينتين. شعر أيضاً أن من المهم بالنسبة إلى أي رئيس فترة ثانية أن يبيّن للملأ أنه صارم وقوي، أنه قادر على جلب أناس حتى أرفع مستوى لشغل المناصب العليا مقارنةً بمن يغادرون. كان هذا في قاموسه عامل "ما هذا؟ يا إلهي!" [عامل المفاجأة]. فالاهتداء إلى أوزان ثقيلة حقيقية لشغل المناصب العليا كان من شأنه أن يولّد زَخَمه ومصداقيته الخاصين.

كذلك وافق هادلي على وجوب قيام الرئيس باستبدال أكثرية أعضاء فريق الأمن القومي عنده. كانوا مثقلين بالأعباء والأوزار، ولاسيما الحرب العراقية. كان لابد لبوش من أن يبدأ بداية نظيفة. في الفترة الأولى لم تكن الدبلوماسية داعمة لبرنامجه، باعتقاد هادلي، وكان باول قد اكتفى بتنفيذ طبعة معدلة من جدول أعمال بوش. كثيراً ما كانت بصمة باول طاغية على بصمة بوش. بقي باول مفرطاً في استقلاليته على صعيد التفكير. ذلك هو ما أضفى معنى على تعيين رايس وزيرة للخارجية.

أما رمسفلد فكان بطل اقتحام فردياً على الصعيدين الإداري والمكتبي. ما من أحد كان مستعداً ليرى رمسفلد لاعب فريق، ولم يكن هو قابلاً للتغيير. ظل دائباً على كل الشتائم لكل من مجلس الأمن القومي وعملية التنسيق بين الأجهزة في أكبر القضايا وأصغرها. عُرف هادلي بأنه كان يشير إلى الوزير ساخراً قائلاً: "دون رمسفلد العظيم".

التحق هادلي بركب الذين كانوا ينصحون بوش بإيجاد فريق أمن قومي جديد. غير أن بوش كانت لديه أفكار مختلفة، وقد طلب من هادلي الارتقاء لانتعال حذاء رايس مستشاراً للأمن القومي. قال الرئيس: "أريدك أن تفعل هذا".

كان من المتعذر، أقله بالنسبة إلى هادلي، رفض مثل هذه الدعوة - والفرصة - للخدمة الرئاسية على هذا المستوى الرفيع.

لاحقاً قال هادلي لآرميتاج: "مفارقة ساخرة، إذن، أن أجد نفسي في هذا الوضع، أليست كذلك؟"

"بلى" قال آرميتاج. "لا أدري ما إذا كنت سأهنئك أم سأقدم لك التعازي".

أفاد هادلي بأنه هو نفسه لم يكن واثقاً.

واجب إبلاغ كولن باول الثقيل بأنه خارج الحلبة كان من نصيب كارد. اتصل هاتفياً بباول ودعاه إلى مكتبه في الجناح الغربي.

ناطقاً العبارة الكلاسيكية قال كارد: "إن الرئيس راغب في التغيير".

رد باول: "حسناً، جميل. تحدثنا عن ذلك".

"قد يبادر الرئيس إلى تسمية كوندي. أكاد أجزم أن المرشحة هي كوندي. من الواضح أن شيئاً قد يحدث من الآن إلى حين التسمية، ولكنني أعتقد أن التسمية ستتم، عليك أن تتصرف وفقاً لذلك".

"مفهوم" قال باول "ومتى تريد خطابي؟"

"إذا زودتني بالخطاب فسأحتفظ به. لن يكون أحد على علم بأنه موجود معي". لن يساط اللثام عن الخطاب إلا في موعد متفق عليه بين الاثنين.

"ثمة أمور كثيرة موشكة على الحدوث" قال باول. "أمامنا جميع الاجتماعات في كانون الأول/ديسمبر، سائر الاجتماعات الوزارية، عدد كبير من الأشياء الأخرى المصاحبة". ثمة كانت مؤتمرات الناتو، قمة سنوية في التشيلي، اجتماع القادة العرب في المغرب في كانون الأول/ديسمبر. الانتخابات العراقية مقررة في 30 كانون الثاني/يناير. "هل تريدون الانتظار وتمكيني من إنجاز كل تلك الأمور؟"

"لا" رد كارد، وأضاف أن هناك تغييرات وزارية أخرى. "يرى الرئيس أننا إذا كنا سنقوم بالأمر، وبسائر الأمور الأخرى، فإن علينا أن نفعلها جميعاً دفعة واحدة".

"هل سيحصل أي تغيير في وزارة الدفاع؟" سأل باول.

"لم أر بعد أي إشارة تدل على ذلك". رد كارد. فهم باول الموقف. إذا كانت التغييرات الوزارية كلها ستُعلن دفعة واحدة، مع عدم وجود أي دليل على حصول تغيير في الدفاع، فإن ذلك كان يعني أن احتمال بقاء رمسفلد كان وارداً. خائباً بوضوح، بدا باول أكثر انفعالاً بما لا يقاس مما توقعه كارد.

فجأة بات الأمر مشحوناً بالعواطف بالنسبة إلى كارد أيضاً. غدا اللقاء حزيناً. ما من أحد كان يمكن أن يكون وزير خارجية أفضل لسنوات بوش الأربع الأولى، برأي كارد. فبوش كان قد تولى الرئاسة دون أي خبرة في السياسة الخارجية أو اهتمام بها، واختار باول المعروف والمحترم في الولايات المتحدة والعالم كله. لم يكن باول تكساسياً آتياً من "خلف البقر". سبق له أن اختُبر مستشاراً للأمن القومي لدى ريغان ورئيساً لهيئة أركان القوات المسلحة. في زمن بعيد يعود إلى 2001، كان باول قد أثبت أنه رجل دولة، وكان قد ساعد بوش على الخروج من سلسلة طويلة من الورطات والمآزق. غير أن كارد لم يكن مؤمناً بأن من شأن باول أن يكون مناسباً للفترة الثانية. قد يتابع الصعود فيصبح الأمين العام للأمم المتحدة.

كان باول شخصاً اعتلى القمة، وأراد كارد أن يرحل وهو في قمة اللعبة، غير أنه رأى وزير الخارجية أشبه بتمثال لاعب بيزبول في صالة المشاهير ينقصه خوض مباراة أخرى. صحيح أن الأمر كان محزناً، ولكن الجميع لا يستيطعون أن يكونوا مثل تد وليامز ويغادروا مع جولة محلية.

قال كارد "لك مساهمات عظيمة،" محاولاً أن يواسي. "غير أننا موشكون على بدء مرحلة أخرى".

لاحقاً، رفع كارد تقريراً وافياً إلى الرئيس وكرر مشاعر الأسى وكيف أن كولن باول لم يكن تد وليامز آخر. (لإشارة هنا هي إلى تد وليامز أشهر لاعب بيزبول أمريكي في القرن العشرين اعتزل اللعب وهو في الأوج - المترجم).

كان بوش قصير النَفَس كالعادة. كان قد اختار رايس وكانت هي قد قبلت. كان يريد إعلان الأمر. أين هو خطاب استقالة باول؟

انتظر كارد عدداً من الأيام ولكن الخطاب لم يأتِ. اتصل مع باول في البيت. جرى حديث لبق ولكنه قصير. "ين هو الخطاب.

"على الطريق،" أجاب باول.

وصل خطاب الاستقالة يوم الأحد الواقع في 14 تشرين الثاني/نوفمبر. وبعد يومين، أعلن بوش تسمية رايس. امتدح باول، وفي فقرة يتيمة أعلن أن هادلي كان مستشاره الجديد للأمن القومي.

33

ظل كارد يضغط فيما يخص بوش. مع مجيء رايس إلى الخارجية وتولي هادلي منصب مستشار الأمن القومي، بات عزوف رمسفلد عن تفعيل العملية البينية عاملاً يدفع إلى الجنون. تعين على كارد أن يضطلع بدور الوساطة على الدوام. قال مرة: "كثيراً ما كنت الشخص الذي يحاول نفض الرمل عن الملابس الداخلية للناس، وتلك مهمة بالغة الصعوبة حين لا تكون الملابس الداخلية ملابسك الداخلية".

عند إحدى المحطات، قام كارد بمفاتحة تشيني حول إمكانية حصول تغيير في النتاغون.

"لا" قال تشيني الذي كان ميالاً إلى التوصية بإبقاء رمسفلد حيث هو. لا غرابة.

كان بوش وتشيني يتحدثان فيما بينهما. بالنسبة إلى تشيني، كانت الضغوط الهيدزوليكية في نظام واشنطن السياسي معروفة جيداً. فرحيل رمسفلد، بصرف النظر عن أسلوب إخراجه، من شأنه ألا يبدو إلا تعبيراً عن الشك والتردد إزاء الحرب. ومن شأن ذلك أن يمنح منتقدي الحرب جرأة وزخماً كبيرين، كما همس في أذن أحد معاونيه، وسرعان ما سيبادر أولئك المنتقدون إلى ملاحقته هو والرئيس من بعده. افتراضياً، أصر على بقاء رمسفلد.

لم يستطع كارد أن يقرأ ألغاز ما كان حاصلاً، وكل ما تمكن من معرفته لم يتجاوز واقع أن رمسفلد كان يريد إحداث بعض التغييرات الخاصة به في الدفاع. كان سيقوم بإبدال كل من وولفوفيتز وفايث. أقر بوش بأنهما كانا في منصبين غير مناسبين. أوصى رمسفلد بتأجيل موعد ذينك التعديلين.

ظل بوش يتحدث مع تشيني الذي أعلن أن الخلاصة هي أن الرئيس لم يكن قادراً على تغيير وزير دفاعه في زحمة الحرب دون إثارة طوفان حقيقي من التساؤلات المختلفة.

في منتصف كانون الأول/ديسمبر، اتخذ بوش قراره النهائي. أوحى لكل من تشيني وكارد بأن رمسفلد كان سيبقى. لم يكن قادراً على تغيير رمسفلد.

أفاد كارد لاحقاً: "لم يكن ذلك يعني أنه لم يكن يريد أن يفعل".

في 2006، قلت لرمسفلد في إحدى المقابلات إن باول، كارد، رايس وهادلي كانوا جميعاً قد نصحوا بوش بتشكيل فريق أمن قومي جديد.

قال رمسفلد: "أنا لم ألتحق بركب أولئك الناس في تقديم النصيحة إلى الرئيس حول وجوب طرد أي شخص آخر".

"متى طلب منك الرئيس أن تبقى؟" سألته.

"لا أدري أنه فعل. لا أتذكر أنه طلب مني البقاء".

"هل كنت راغباً في البقاء؟"

"أنا هنا".

"لاحظت ذلك".

"أنا أردت بالفعل، نعم أردت الأفضل بالنسبة إلى البلاد، وما أحس الرئيس بأنه مناسب وصحيح. إنه مكلف بمهمة شاقة ويجب أن يتولاها بطريقته".

"إلا أنه لم يكن ثمة أي لحظة أو مقابلة قال لك فيها: "أريدك أن تبقى"؟"

"لا أتذكر أن لحظة كتلك قد كانت" قال رمسفلد. غير أنه أضاف، بالمقابل، وهو يضحك: "أنا واثق تماماً من أن لحظة يقول فيها "أريدك أن ترحل" لن تكون".

تمثل أحد مزاعم الإدارة بأن 14 من 18 محافظة عراقية هادئة ومستقرة نسبياً، وبأن حوادث العنف والمشكلات محصورة بالفعل في أربع محافظات فقط. وقد ورد الزعم على لسان رمسفلد بالذات يوم 8 تشرين الثاني/نوفمبر.

"مفهوم" قال وولفوفيتز لرمسفلد، "ولكن المحافظات المستقرة نسبياً لا تصبح أكثر استقراراً. إنها تغدو أقل استقراراً". أما ما كان من شأنه أن يضع الزعم في السياق فقد كان ذلك السر الصغير القذر المتمثل بأن الهجمات كانت متصاعدة في كل الأمكنة. إجمالاً، كانت الهجمات قد قفزت من جديد إلى 3000 في تشرين الثاني/نوفمبر – رقم قياسي تقريباً، حسب التقارير السرية المصنفة. "لماذا لا نولي قدراً أكبر من الاهتمام لقضية جعل الـ 14 محافظة مستقرة حقاً وتحويلها إلى نماذج جديرة بالتقليد بالنسبة إلى باقي المحافظات؟"

obeikandl.com

بدا رمسفلد معجباً بالفكرة.

بادر وولفوفيتز إلى وضع مخطط موجز مع خرائط تبين بالأضواء المألوفة - الحمراء، الصفراء والخضراء - يقضي بتجنب تسليم جزء من البلد ولكن يفضي إلى عمل ومن ثم محاصرة المتمردين في المحافظات الأربع الأكثر عنفاً.

بطلب من رمسفلد، قام وولفوفيتز بمراجعة عدد من المسوّدات. ظل يروّج للمخطط، بل وعرضه على تشيني في إحدى المناسبات، غير أن أحداً لم يشتره. بما يشبه التزامن مع عدم الاهتمام ونفوذ وولفوفيتز المتضائل، عاد بوش إلى المزاعم القديمة في أحد منابر الأسئلة والأجوبة العامة.

قال بوش: "اسمعوا، 14 من 18 محافظة تبدو هادئة نسبياً".

أطلق كارد بحثين فيما يخص الملاك. تعين عليه أن يهتدي إلى شخص يكون المدير الأول للاستخبارات القومية، وآخر يحل محل وزير أمن الوطن توم ريج. فأمن الوطن كان قد أدى إلى خفض "إنذار الإرهاب" من اللون البرتقالي إلى اللون الأصفر في 10 تشرين الثاني/نوفمبر، بعد ثمانية أيام من الانتخابات، وبعيد ذلك كان ريج قد أبلغ بوش عن رغبته في الاستقالة.

أخرج كارد دفتر "البدائل المحتملة" من جعبته. كانت قوائمه تضم عدداً كبيراً من الأسماء المألوفة - السناتور السابق كوتس، السناتور ليبرمان، رودي غولياني وآرميتاج.

اتصل كارد مرة أخرى مع آرميتاج ليرى ما إذا كان الأخير مهتماً بالأمن الوطني.

"لا، شكراً" رد آرميتاج. "الوزير وأنا في خانة واحدة، في الإدارة وخارجها".

"حسناً" قال كارد "يمكنك الخروج معه اليوم وتدخل وإياه في اليوم التالي من باب آخر".

"لا، أعتقد أن ذلك غير صحيح" قال آرميتاج.

ومن ثم بادر هادلي إلى الاتصال ليتابع تفاعلات سؤال كارد.

سأله هادلي: "هل سألك أيضاً عن منصب المدير القومي للاستخبارات؟"

"لا".

"كان يتعين عليه أن يفعل". هل من شأن ذلك أن يعني فرقاً ما؟"

كان جواب آرميتاج بالنفي ثم أضاف ما كان يفكر به قائلاً: "ما لا أستطيع أن أعرفه بالتحديد هو كيف يمكنني أن أعمل في إدارة تدفع الوزير باول إلى الترك وتحتفظ بالسيد رمسفلد".

الموصل، مدينة ذات 1.8 مليون نسمة، تفجرت. متمردون أغاروا على عدد من مراكز الشرطة، سطوا على الأسلحة ونشروا الأذى. في 14 تشرين الثاني/نوفمبر، قاموا باختطاف ضابط شرطة جريح من أحد المشافي وتقطيعه إرباً. أقله نصف عناصر شرطة المدينة تركوا وظائفهم. نجح المتمردون في إصابة طائرتي سي – 130 بصواريخ أرض جو، وأعداد من القوات والمدرعات الأمريكية تدفقت على المدينة. طار نغروبونتي إلى هناك ليعاين الوضع غير أن طائرته لم يسمح لها بالهبوط. كان شديد الغضب وتفجر عن وابل من شتائم الكفر في طريق العودة إلى بغداد الممتدة 200 ميل.

تمكن الجنرال كيسي وجيم جفري من الدخول جواً إلى الموصل في الليل. تعرضا للقصف لحظة الهبوط على الأرض. مع حلول نهاية تشرين الثاني/نوفمبر، وانتخابات الـ 30 من كانون الثاني/يناير المبرمجة على مسافة 60 يوماً، كان ثمة فيض من المشكلات اللوجستية. قد لا نهتم بالأمن في مراكز الاقتراع، وقد كان سيئاً إلى درجة كافية، غير أن العراقيين كانوا عاكفين على التخطيط لاستيراد ملايين أوراق الاقتراع في عشرات من الطائرات الكبيرة. وعلى الرغم من قيام الأمم المتحدة بمد يد المساعدة، فإن جفري ظل يتساءل عن كيفية تدبر الأمر. إجمالاً، كان العراق "غارقاً في الوحل" حسب رأيه.

دأب مسؤول الأمم المتحدة الأخضر الإبراهيمي على توجيه الرسائل إلى بوش مناشداً إياه تأجيل الانتخابات العراقية. فالأقلية السنية كانت تعلن صراحةً أنها كانت ستقاوم بل وحتى ستقاطع الانتخابات، وكان الإبراهيمي راغباً في المزيد من الوقت لدفع السنة إلى إعادة النظر والمبادرة إلى المشاركة الفعالة في العملية الانتخابية. فيما مضى، في عشرينيات القرن العشرين، كان الشيعة قد رفضوا المشاركة في العملية السياسية. والتاريخ الشعبي يؤكد أن ذلك الإحجام كان قد أدى إلى ترسيخ عزلة الشيعة لعقود من الزمن. والآن كان الخوف هو أن يقع السنة في المطب نفسه من الحرمان والتعرض للتجميد خارج إطار أي حكومة عراقية جديدة على نحوٍ دائم.

كان رئيس الوزراء العلاوي وآخرون يبعثون رسالة التأجيل نفسها. كثرة من وسائل الإعلام العراقية أكدت أن من شأن الانتخابات أن تفضي إلى العنف اللامحدود. لم يكن الالتزام الأعمى بأي موعد عشوائي منطوياً على أي معنى.

لعل الصوت العراقي الوحيد الداعي إلى السير قدماً في عملية إجراء الانتخابات كان صوت الزعيم الشيعي آية الله العظمى السيستاني. كان الشيعة قد انتظروا ما يكفي من الوقت. كانوا يريدون الديمقراطية. كانوا راغبين في استعراض عضلاتهم السياسية.

في اجتماع لمجلس الأمن القومي يوم 29 تشرين الثاني/نوفمبر قال الرئيس: "من المهم حقاً عقد الانتخابات يوم 30 كانون الثاني/يناير". بعض أعضاء المجلس كانوا مترددين وكان من الممكن إقناعهم بضرورة التأجيل، بمن فيهم هادلي. غير أن بوش لم يدعُ أحداً إلى بيان أسباب موجبة للتأجيل.

قال الرئيس: "الجميع يؤيدون السير قدماً، صحيح؟" لم يكن ذلك سؤالاً في الحقيقة.

ساد الصمت.

تابع الرئيس: "شكراً على تحليكم بالقوة". ثم واصل الكلام كما لو أن الصمت كان موازياً للإجماع. "لن نكسب شيئاً من التأجيل. السيستاني على حق. انظروا، هذا هو الوضع الذي أجد نفسي فيه. طائفة الأكثرية تريد إجراء الانتخابات ويُنتظر مني أن أقول لا؟"

وقال أيضاً "لن نقوم باختيار ناجحين". لن تتدخل السفارة ولا وكالة الاستخبارات المركزية. "ليكسب من يكسب".

كان ذلك أمراً يصعب تنفيذه بالنسبة إلى كل من الدبلوماسيين، المدمنين على تقديم الدعم لمرشحين قريبين من الولايات المتحدة، ووكالة الاستخبارات المركزية، التي درجت على تفضيل رئيس الوزراء الانتقالي العلاوي. إلا أن توني بلير كان قد أوفد عنصرين بريطانيين لمساعدة العلاوي. وأبلغ بوش بأن البريطانيين كانوا سيتولون الاهتمام بالموضوع.

كانت الانتخابات مسألة أخرى لم يكن للعسكري الأول، رئيس هيئة الأركان المشتركة الجنرال ميرز فيها أي صوت. كذلك لم يكن لأي شخص آخر أي رأي بالمناسبة. كان ميرز قادراً على الإحساس بأن الرئيس كان مولعاً بإبقاء أي ظل للشك خارج غرفة العمليات الصغيرة التي لا نوافذ لها. فسواء أكان الأمر متعلقاً بإصابات مرعبة، أنباء سيئة، القرار الحالي بشأن الانتخابات العراقية، مشكلة أخرى ما، أم بمجرد موجة من اللايقينيات المصاحبة للحرب، كان الرئيس يحاول المبادرة إلى التسوية.

في إحدى المرات قال بوش: "عندك! نحن نعلم أننا نفعل ما هو صحيح. نحن على الخط السليم هنا. إننا نقوم بما هو صحيح لنا، لمصالحنا الخاصة، ولمصلحة العالم. إياكم أن تنسوا ذلك! كفى يا شباب!"

ثمة أحلام أعمق بل وحتى أعظم كانت تراود بوش. صباح يوم الجمعة الواقع في 3 كانون الأول/ديسمبر 2004، استدعى كاتب خطبه الأول مايكل غيرسون. بات هدف بوش الآن متركزاً على إحداث تغيير دراماتيكي مثير في ذهنية السياسة الخارجية الأمريكية بمستوى من الجذرية يوازي مستوى ما حدث من انقلاب في بداية الحرب الباردة أواخر الأربعينيات لدى اعتماد سياستي الاحتواء والردع. وخطاب بوش في وست بوينت في حزيران/يونيو 2002 كان قد وفر الأساس والتسويغ اللازمين لغزو العراق. فالمؤرخ آرثر شليزنغر الابن، المحتقر لبوش، أصيب بالدهشة إزاء قدرة الأخير على قلب سياسة أمريكا الخارجية بمثل هذه المهارة إلى عقيدة ترقى إلى مستوى "الحرب الوقائية" – الحرب للحيلولة دون الحرب. "وتحقيق هذا دون إشعال نار جنّ قومي واسع دليل على توافر مهارات قيادية ذات شأن،" حسب تعبير شليزنغر.

حين وصل غيرسون صباح ذلك اليوم، أفهمه الرئيس رغبته في أن يكون خطاب قَسَمه الثاني الوشيك نحتاً لفكرة واحدة في الصخر: "إن مستقبل أمريكا وأمن أمريكا متوقفان على نشر الحرية". تلك كانت الفكرة. أراد خطاب قسم عن الحرية والتحرر. طلب من غيرسون الاهتداء إلى أكثر الأساليب الممكنة قابلية للرسوخ في الأذهان واقتصادية لبيان هذا لكل الزمن، إلى كلمات كان من شأنها أن تحدد سياسته في علاقتها مع العالم الجديد الذي تتم مواجهته. فالإرهابي أبو مصعب الزرقاوي في العراق والجهاديون الدوليون كانوا قد اختاروا القتال في العراق لأسباب وجيهة، قال بوش. لقد اكتشفوا أن من شأن أي إخفاق أمريكي في العراق أن ينطوي على عواقب بعيدة المدى في الشرق الأوسط.

قال بوش: "لقد أدركوا الرهانات، وعلينا نحن أيضاً أن نفعل".

نادراً ما توفر لأي كاتب خطب مثل هذه الفرصة لتحديد معالم أحد العصور. كانت فرصة مناسبة لتحطيم المزيد من الحواجز التقليدية الفاصلة بين الواقعية والمثالية في السياسة الخارجية الأمريكية. فالمصالح الواقعية لأمريكا كان من شأنها الآن أن تقوم على أساس الإيمان بالمُثُل العليا الأمريكية ولاسيما الديمقراطية. وكما هي

العادة، فإن غيرسون كان قد قرأ أعداداً كبيرة من الخطب القديمة ولاسيما خطب القسم التي كان هاري ترومان قد وظفها لتحديد مبادئ الحرب الباردة ثم جاء جون كنـدي وضاعفها.

غير أن بلاغة كندي كانت قد تجاوزت الحدود وبدت مفرطة المهابة، حسب تقدير غيرسون. كان كندي قد قال في خطاب القسم سنة 1961: "ادفعْ أيَّ ثمن، تحملْ أي عبء، واجهْ أي صعوبة، ادعمْ أي صديق، تصدَّ لأي عدو في سبيل ضمان بقاء الحرية ونجاحها". تلك هي الذهنية التي كانت قد قادت إلى فيتنام. لم يكن غيرسون يريد شيئاً يشي بنوعٍ من الالتزام المتطرف، الطليق بالديمقراطية الكاملة في كل الأمكنة. فسقوط حكم حسني مبارك اللاديمقراطي ولكن الصديق في مصر، مثلاً، لم يكن من شأنه أن يشكل هاجساً مباشراً بالنسبة إلى الولايات المتحدة.

أراد غيرسون من الخطاب أن يحدد عناصر واقعية لإصلاح الديمقراطية - لا انتخابات وحسب، بل تنمية ثقافات ديمقراطية في كل من مصر، المملكة العربية السعودية والأردن. كان من شأن الأمر أن يشتمل على حقوق النساء والأقليات، على الحرية الدينية، على المزيد من الإصلاح في مجالي التجارة والقانون.

قال غيرسون لأحد الزملاء: "سنقوم بتحديد سلسلة جدية من الخيارات السياسية والتخطيطية الواقعة بين عدم الاهتمام بمصائر الآخرين من ناحية والحرب الدائمة من الناحية المقابلة". بالنسبة إلى إيران، مثلاً، كان ثمة خيار واقع في مكان وسط بين قطبي الغزو المباشر والإحجام عن فعل أي شيء. كان غيرسون يأمل في أن يتمكن من إعداد مسودة استراتيجية طويلة المدى مرشحة لأن تكون راسخة وأخلاقية بدلاً من أن تكون قائمة على نسف الاستقرار والحض على المجابهة.

من حيث المضمون كان بوسع الخطاب أن يزاوج بين جميع الأشياء التي كان بوش قد أقدم عليها منذ 9/11. فتاريخ 9/11 كان بالنسبة إلى بوش خطاً فاصلاً بين القرن الجديد وعقد تسعينيات القرن العشرين حين كان كلنتون قد أخفق في الرد بما يكفي من العنفوان والشدة على سلسلة من الهجمات. وهجمات 9/11 شكلت تنبيهاً إلى نوعية الظرف التاريخي الذي كان من شأن أي رئيس للجمهورية أن يواجهه خلال السنوات الـ 50 القادمة.

حصل هادلي على عدد من استطلاعات آراء العراقيين التي أشارت، افتراضياً، إلى حول ملحوظ في الرأي العام خلال الأشهر الأخيرة. كانت المسوح تبين استياء

عميقاً من الاحتلال الأمريكي ولكنها لم تكن تشي بأي انعدام ثقة بالمؤسست الديمقراطية. من شأن العزف على وتر الديمقراطية في خطاب حالة الاتحاد، إذن، أن يدغدغ مشاعر العراقيين.

كان غيرسون عميق الوعي بأن سياسة بوش الخارجية لم تكن النوعية التي يتبنها المحافظون التقليديون الذين "يتصدون للتاريخ صارخين: "قف!"" كما كتب وليم ف بكلي. فبوش كان يقول "هيا إلى الأمام!" بوضوح واعتقد غيرسون أن بوش كان يتصرف حاذياً أكثر حذو فرانكلن دي روزفلت عبر توظيف الحكم والإدارة لتوسيع نطاق الحرية.

بدا غيرسون شديد الحماس، آملاً في تحقيق شيء في السياسة الخارجية يوازي نظرية أينشتاين الخاصة بالحقل الموحد للكون. وقد بالغ في الانفعال إلى درجة أنه أصيب بذبحة قلبية منتصف كانون الأول/ديسمبر. لم يعز الأطباء الأمر إلى الإجهاد. قالوا إنه نتاج تضافر جيناته الوراثية والتوتر.

اتصل بوش مع غيرسون في مستشفى الكساندريا حيث كان مسجلاً باسم جون الكساندريا المستعار.

قال بوش: "أنا لا أتصل للسؤال عن خطاب القسم. أنا أتصل للاطمئنان على من هو عاكف على كتابة خطاب القسم".

تماثل غيرسون للشفاء. في غضون أسابيع عاد للعمل، مع برنامج مختزل، متركزٌ على الخطاب.

قام آرميتاج بزيارة العراق نهاية عام 2004.

لدى عودته سأله بوش: "ماذا وجدت؟"

قال آرميتاج: "لسنا رابحين" ثم أضاف بحذر "لسنا خاسرين. عدم الربح على المدى الزمني الطويل يعمل لمصلحة المتمردين". وقال إن حملة التخويف التي يشنها المتمردون غير قابلة للتصديق.

بوش لم يجادل. لاحقاً اتصل آرميتاج بكل من نغروبونتي وكيسي لإبلاغهما ما كان قد قاله للرئيس لأنه لم يرد أن يباغتا. وما كان مفاجئاً هو أن أياً منهما لم يناقشه. يا لها من فوضى مرعبة. اكتشف آرميتاج أيضاً أن تحليلات وكالة الاستخبارات المركزية وجهاز استخبارات الدفاع كانت متطابقة. العدو ذو منشأ محلي إجمالاً. صحيح أن

القوتين الخارجيتين، سورية وإيران، مهمتان ولكنهما ليستا حاسمتين بالنسبة إلى حركة التمرد.

أصغى هادلي إلى صياغة آرميتاج لعبارة لسنا رابحين، لسنا خاسرين، وشعر بأنها كانت قضية تنفيذ وتطبيق. اقتصر الأمر على عدم إجادة التصرف.

بعد الهجمات العنيفة على مراكز الشرطة العراقية، عبر فرانك ملر مرة أخرى عن القلق إزاء الأسلوب الذي يعتمده الجيش الأمريكي في تدريب الشرطة. ثمة تقديرات مختلفة كانت تقول إن عدد المدربين بلغ 60.000، غير انه كان من الصعب معرفة ما كان الرقم يمثله. تقدير آخر كان يقول إن نصف ذلك العدد فقط كانوا موجودين فعلاً تحت الخدمة. وعلى أي حال، لم يكونوا مرشحين لأن يصبحوا قادرين على إلحاق الهزيمة بالتمرد من خلال الشرطة. إنها حرب. لابد لهم من مضاعفة التركيز على قوات النخبة القتالية وشبه العسكرية.

قال ملر لرايس: "ثمة خطأ ما في الصورة هنا. نحن نقوم ببناء وحدات دوريات خفيفة. من الممكن غض النظر عن أن الوحدات ستعمل بإمرة عقداء من مخلفات الحقبة الصدامية. ليس ثمة أي مركز في العالم، ولا يهمني ما إذا كان في لوس أنجوس أو نيويورك، يستطيع أن يصمد أمام الهجمات بقذائف الآربي جي والمدافع الرشاشة الثقيلة".

كان ملر قد جادل دون نجاح في اجتماعات لجنة النواب مدافعاً عن حاجة السفارة الأمريكية في العراق إلى إقامة محطات أمامية متقدمة في طول البلد وعرضه. كان يرى أن تلك كانت إحدى النقاط المضيئة القليلة لحقبة بريمر حيث كان يوجد 18 إدارياً محلياً منخرطاً فعلاً بما كان يجري في البلد. غير أن فكرته ذهبت أدراج الرياح. فبصمة أقدام السفارة الأمريكية بقيت محصورة أساساً بالمنطقة الخضراء.

ثمة إصلاحات بسيطة كان يتعين على السفارة ببغداد، حسب رأي ملر، أن تلح عليها. كانت هجمات المتمردين تؤدي إلى إغلاق أنابيب النفط العراقية. أمر ملر بإجراء دراسة بينت أن جل الهجمات كانت موجهة إلى قطاعات صغيرة، وسريعة العطب من الأنابيب. اقترح تكليف الجيش بطمر تلك القطاعات بالرمل والتراب. غير أن الاقتراح لم يؤخذ به. كذلك أخفق في السعي إلى جعل الجيش يرفع هدفه فيما يخص توفير الطاقة الكهربائية.

في كانون الأول/ديسمبر 2004 سألت رايس ملر: "كيف أجعل السفارة ببغداد تتقن أوامر الحكومة؟" بعد ستة أشهر، صار نغروبونتي راغباً في التخلي عن المنصب والعودة إلى أمريكا، وتعين عليهم أن يختاروا بديلاً، راح ملر ورايس يتحدثان عن زلماي خليلزاد، الأمريكي من أصل أفغاني الذي كان صلة وصل مجلس الأمن القومي مع المعارضة العراقية والذي كان قد رُقي ليصبح سفيراً في أفغانستان. قالت رايس: "نجح زال في قلب السفارة في كابول إلى سفارة جديرة بزمن الحرب. إنه يعرف كيف يتدبر الأمور".

كان ذلك من نوع الثرثرات الواشنطنية غير المرشحة لأن يطول بقاؤها سراً، وفي أوائل كانون الثاني/يناير أعلنت إحدى فقرات زاوية "العروة" لآل كامن في **الواشنطن بوست** أن خليلزاد كان موشكاً على الحلول محل نغروبونتي.

غير أن عائقاً سرعان ما برز. قامت أجهزة الاستخبارات الحساسة بإماطة اللثام عن مناقشات أقدم فيها خليلزاد على طمأنة المندوب الدولي الأخضر الإبراهيمي بشأن تاريخ الـ 30 كانون الثاني/يناير لعقد الانتخابات العراقية لأنه قد يُفوَّت. كان لافتاً أن يبادر أحد سفراء بوش إلى مطالبة أحد الموظفين الأجانب بعدم القلق بشأن سياسة الولايات المتحدة الرسمية.

اتصل آرميتاج مع ملر وقال: "عليك متابعة الأمر".

نزل ملر إلى غرفة عمليات البيت الأبيض وطلب الاطلاع على البرقيات، غير أنها لم تكن موجودة. أعاد الاتصال مع آرميتاج.

"لا أستطيع العثور عليها يا ريتش. ليست موجودة في غرفة العمليات".

"مفهوم" قال آرميتاج. "لقد جرى احتجازها جميعاً".

إنه لكذلك، قال ملر لنفسه.

في اتصال هاتفي قال هادلي لخليلزاد "لقد أفسدت الأمر في الحقيقة يا زال. أشك في أن يتمكن من تسميتك سفيراً في العراق، والآن بكل تأكيد. أقله، لابد من مرور فترة زمنية معينة قبل أن يصبح قادراً. ولكن قد لا يستطيع أبداً".

استضاف بوش حفل استقبال في البيت الأبيض يوم 3 كانون الثاني/يناير 2005 دُعي إليه أعضاء الكونغرس الجدد وأزواجهم. خاطب بوش الحفل قائلاً: "لورا وأنا نعرف مدى صعوبة الانخراط في العمل السياسي بالنسبة إلى العائلة. إنه تضحية كبيرة، في الحقيقة – تضحية بالحياة الخاصة، تضحية بالوقت مع الأولاد".

يا للهراء المفرط! مقارنةً بالتضحية القصوى الحقيقية لـ 1.333 أمريكياً مع آلاف آخرين من العراقيين. كان بوش في سكرة ما بعد الانتخاب.

لم يتطرق الرئيس إلى العراق إلا على نحوٍ عابر. "علينا أن نطمئن إلى أننا سنكسب الحرب. لابد لنا من ضمان توفير الدعم لقواتنا".

بعد يومين، في اجتماع لمجلس الأمن القومي، جرى نقاش طويل حول كيفية زيادة المشاركة السنية في الانتخابات الوشيكة.

قال الرئيس: "لنتحل بالذكاء على صعيد استكشاف أفكار خلاقة حول تمكين السنة من المشاركة دون التأثر بالعنف. ماذا عن التصويت عبرا لهاتف؟ ماذا عن إرسال أوراق الاقتراع بالبريد؟ ماذا عن إيفاد سفراء إلى بلدان عربية لتشجيع السنة على المشاركة في العملية؟"

مشهد بوش على شاشة الفيديو الآمن في بغداد أدهش جفري. نادراً ما كان أي دبلوماسيين أو عسكريين في الميدان يتلقون مثل هذا التوجيه المباشر، الواضح الصادر عن القائد الأعلى: "ستجعلونها تحصل". صحيح أن أفكار بوش عن التصويت عبر الهاتف أو البريد لم تكن عملية، غير أن حماس الرئيس وإيمانه كانا منطويين على معنى معين. عملياً كان بوش يقول: "ليس أمامكم أي خيار في هذا الأمر. إنه أمر لا تستطيعون إفساده". ومع اقتراب موعد الانتخابات، بات جفري غارقاً في بحر من الرحبة والأمل.

في البيت الأبيض، ظل هادلي يراقب بشيء من الدهشة مجيء وكالة الاستخبارات المركزية الدوري المنتظم لإطلاع الرئيس على التنبؤات الكئيبة المنذرة بحرب أهلية. لم تكن الانتخابات مؤهلة لتقليص حجم العنف، بل كان من شأنها أن تفضي إلى جعل الأمر أسوأ مما هي، حسب تقارير وكالة الاستخبارات المركزية.

رد بوش: "سنعقد الانتخابات يوم 30 كانون الثاني/يناير". فالمواعيد بالغة الأهمية بالنسبة إلى قضية التقدم. حيث لا مواعيد دقيقة، لا تقدم، ولا شيء يمكن أن يحصل.

كررت وكالة الاستخبارات المركزية رسالتها – شفهياً من ناحية وعبر تقارير خطية سرية مصنفة من ناحية ثانية. بدا تاريخ الـ 30 كانون الثاني/يناير أشبه بتثبيت هدف معين على العراق كله – لنضرب ذلك اليوم، لنقصف مكاتب الاقتراع. بما أن الأقلية

السنية كانت على يقين بأن تلك كانت انتخابات سيخسرونها، فقد كان من شأنها ن تتمخض عن موجة من العنف الطائفي من الطرفين السني والشيعي. من جديد أوصت الوكالة بتأجيل الانتخاب.

قام هادلي بطرق باب مدير وكالة الاستخبارات المركزية بورتر غوس وبعض محليه ونشطائه الميدانيين مباشرةً. كان يريدهم أن ينخرطوا في سلسلة من العمليات الدعائية دعماً للانتخاب. غير أن فكرة وكالة الاستخبارات المركزية عن العمليات الإعلامية لم تكن، برأيه، سوى حملة لنشر الأكاذيب.

سأل هادلي: "ما الداعي لنشر الأكاديب؟ لننشر الحقائق. إنها أقوى بكثير. ليست متاحة. لابد من الاهتداء إلى سبل الوصول إلى الحقائق بطريقة تضمن عدم تعرضها للدحض الفوري لأنها صادرة عنا".

إن أمريكا متمتعة بأعلى الأصوات في العالم بفضل أفلامها السينمائية، ألحانها الموسيقية وبرامجها التلفزيونية. ولكن أمريكا هذه مازالت، كما شكا هادلي، عرضة للقدح والذم اليوميَّين وسلسلة الهجمات المتواصلة من جانب الإرهابيين والجزيرة.

في اجتماع لمجلس الأمن القومي يوم 10 كانون الثاني/يناير 2005، أعاد بوش تأكيد ضرورة التمسك بتاريخ عقد الانتخابات العراقية بعد 20 يوماً. قال: "يتعين علينا أن نفكر باستراتيجية ما بعد الانتخاب". "سنكون بحاجة إلى التأثير في الشيعة المنتصرين لدفعهم إلى الإعلان بصراحة ووضوح عن أن السنة سيكونون مشمولين. لعل صيغة الحكومة الخارجة من رحم العملية الانتخابية هي الأكثر أهمية من عملية التصويت".

ولكن أي فريق من السنة؟ ما الجهة المتمتعة بالنفوذ في صفوف تلك الأقلية؟ كان الاجتياح الأمريكي قد أطاح بالسنة، فكيف يمكن النظر إلى الولايات المتحدة بوصفها وسيطاً نزيهاً، بله قوة خارجية حريصة على مصالح السنة؟ هذان السؤالان لم يُطرحا مما أبقاهما معلقين.

بدأ هادلي يحس بالخوف. ربما يتعين عليهم أن يؤجلوا.

كرر بوش تأكيده السابق: "ملتزمون نحن بالانتخابات". وراء الكواليس، وجه انتقاد شديداً لعدم وجود قيادة قوية وفعّالة في العراق. أين هم القادة؟ ما الذي يبقيهم متربدين عاجزين عن الإقدام؟ "لماذا لا يبادرون إلى الاضطلاع بالمسؤولية عن مصيرهم بالذات؟"

34

في 18 كانون الثاني/يناير، مَثُلتْ رايس أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ للإدلاء بشهادتها تمهيداً للتثبيت [وزيرة للخارجية]. هاجمها الديمقراطيون بعنف. اتهمتها السناتور الكاليفورنية بارباره بوكسر، قبل الخوض في تلاوة فيض من تصريحات رايس حول أسلحة الدمار الشامل قبل الغزو، قائلة: "إن ولاءك للمهمة التي كُلفت بها، مهمة الترويج لهذه الحرب، طغى على احترامك للحقيقة".

أصيبت رايس بصدمة واضحة إذ سارعت إلى الرد قائلة: "أيتها السناتور، يتعين علي أن أقول إنه لم يسبق لي قط أن فقدت الاحترام للحقيقة في خدمة أي شيء". أما بعد العودة إلى البيت الأبيض فكانت واضحة الأسى.

"تماسكي" قال روف. فالجمهوريون متحكمون بمجلس الشيوخ؛ وبالتالي فإن تثبيتها سيكون مسألة شكلية رغم احتمال تسببه ببعض الأذى. إنه ثمن القيام بعمل سياسي في واشنطن. درج الفائزون على تلقي السهام ولكنهم بقوا قادرين على النجاة بل وحتى الازدهار. "ستكونين على ما يرام. أنت من الفائزين".

بعد أسبوع واحد أقر مجلس الشيوخ تثبتها بـ 85 مقابل 13 صوتاً.

يوم التنصيب، يوم خطاب القَسَم، يوم 20 كانون الثاني/يناير، كان بوش قد تدرب على إلقاء خطابه عدداً غير قليل من المرات. قال لغيرسون: "لا أستطيع انتظار موعد إلقاء هذا الخطاب". مع أن آخرين كانت لهم مساهمات بسيطة، فإنه كان خطاباً، وخطة أو سياسة، من صنع بوش وكاتب خطبه في المقام الأول من حيث الجوهر. بعد تلاوة إحدى المسوّدات النهائية، قال آندي كارد نصف مازح: "ليس هذا خطاباً يمكن أن يلقيه ديك تشيني".

بعد أداء بوش للقسم على سلّم الكابيتول، مشى إلى المنصة وألقى خطابه المؤلف من 2000 كلمة والذي دام 17 دقيقة. من حيث الإلقاء، كان أحد أفضل أشكال أدائه. تكلم بوضوح، دون أي تعثر أو أي لحظة شرود أو تردد.

أعلن بوش: "تقوم سياسة الولايات المتحدة على الاهتداء إلى، ودعم نمو حركة الحركات والمؤسسات الديمقراطية في سائر الأمم والثقافات مع التركيز على الهدف النهائي المتمثل بوضع حد للطغيان في عالمنا". استخدم كلمتي "الحرية" أو "التحرر" – أو مشتقاتهما مثل "حر" و"تحرير" – 44 مرة، 9 منها في الفقرتين الأخيرتين.

درج غيرسون على متابعة خطب بوش على شاشة التلفزيون، ليراها كما لو كان شخصاً عادياً فيكون أقدر على إدراك ردود الأفعال. أما هذه المرة فقد كان على منصة التنصيب. لم يكن قد سبق له أن كان لديه مثل هذا الإحساس الملموس بالانخراط الفعلي في زحمة أحد المشروعات التاريخية. برأي غيرسون، كان من شأن أي رئيس جمهورية مستقبلي أن يأخذ عقيدة بوش أو مبدأ بوش مأخذ الجد. كان من شأن الخطاب أن يرسم مساراً للعقود القادمة.

بعد الإطلاع على بعض ردود الأفعال الدولية أفاد هادلي بـ "شيء كبير قد حصل".

برأي عدد كبير من المحافظين، كان الخطاب نقطة سلبية كبيرة.

شنت كبيرةُ كَتَبةِ خطب بوش الأب بَفي نونان هجوماً عنيفاً على الخطاب على صفحات **الوول ستريت جورنال**، مثبتة إصبعها على عين المبدأ المركزي. كتبت نونان تقول: "جعلني الخطاب أشعر بالأسى. آلمني وخزاً وقرصاً، إذ أكد جدولاً للأعمال مفرط الشمول والاتساع إلى درجة أن أي مراقب بات قادراً على التعليق الساخر قائلاً إنه لما فوجئ في النهاية لو كان الرئيس قد أعلن أننا كنا عازمين على استعمار المريخ".

"بدا الخطاب وثيقة من صنع بيت أبيض مكلف بأداء رسالة تبشيرية. فالولايات المتحدة، كما قال الخطاب، بادرت إلى توجيه إنذار إلى العالم". صحيح أن حلم وضع حد للطغيان جدير بالثناء، قال نونان، ولكن هذه مسألة فوق القمة – وإلا فكيف؟ ثم أضافت: "إن أكثر الخطب تحريكاً تدعونا إلى القضية القابلة للحل بالفعل".

لم يُبْدِ بوش أي اهتمام حين علم برد الفعل الصادر عن كاتبة خطب أبيه المفضلة.

رأت رايس أن الخطاب كان محلِّقاً، أحد أفضل الخطب التي سبق لها أن سمعتها في حياتها. غير أنها كانت تفكر وهي جالسة تصغي، بينها وبين نفسها: "رائع! ولكن كيف ننفذ المضمون؟" أدركت أن الأمر كان سيستغرق أعواماً. تمثلت المسألة، كما قال لجهاز العاملين لديها بـ "إذا ما نظر الناس إلى الوراء بعد مضي 30 سنة واطلعوا على

خطاب قسم بوش الثاني، فهل سيقولون إن السياسة الأمريكية ساعدت على تحقيق ذلك، أو على التوصل إلى بناءا لأسس اللازمة لبلوغ ذلك؟" أما عن النقد فقد قالت: إذا لم يكن رئيس الولايات المتحدة قادراً على الوقوف والإعلان في الأيام العادية عن أن عينا أن نتطلع نحو اليوم الذي نضع فيه حداً للطغيان، ويعيش فيه الجميع في ظل الحرية، فلعل أفضل مناسبة لإطلاق مثل هذا الإعلان هي مناسبة خطاب القسم. إنه الوقت المناسب لمثل هذا النوع من الأحلام الجريئة".

كان ستيف هادلي قد رأى خلال السنوات الأربع الماضية أن بعض كبار المسؤولين من الوزراء والرؤساء والمدراء قد يفضلون الشكوى من المشكلات بدلاً من حلها، يميلون إلى التذمر من الأخطاء بدلاً من المبادرة إلى تصويبها. فالجنرال ميرز شكا لهادلي مرة من وجود مشكلة حول تنسيق الأمور العسكرية مع السعوديين.

رد عليه هادلي مباشرة: "لقد نجحت للتو في تسوية المسألة".

"عظيم، إذن" علق ميرز. "إنه مثال جيد غير أن عندي تسعة أمور أخرى".

"زودني بقائمتك يا ديك" قال هادلي. "سأقوم بشطب بنودها، الواحد بعد الآخر".

مساء السبت، في 22 كانون الثاني/يناير 2005، قام رمسفلد وميرز بحصر هادلي في الزاوية خلال حفل عشاء نادي ألفا ألفا بواشنطن.

منقضاً على الرجل مباشرةً قال رمسفلد: "هل تعلم أن التنسيق البيني خائب؟" والتنسيق البيني هذا كان من مسؤوليات هادلي. تابع رمسفلد كلامه: "لدى ديك ميرز قائمة طويلة. ما من يوم إلا ويأتيني فيه شاكياً من انهيار التنسيق البيني. بحوزته قائمة طويلة بأمور يريد تنفيذها".

رد عليه هادلي: "أريدك أن تعلم يا دون أنني قلت لميرز إننا بحاجة للقيام بذلك في أربعة أشهر. ابعث لي قائمتك وسأتعامل معها مثل قائمة مربعات تُغلق تباعاً".

بعد أسبوعين اثنين كان هادلي لا يزال بانتظار القائمة.

فيما بعد أكد رمسفلد في إحدى المقابلات أنه كان مؤمناً بأن عملية التنسيق البيني كانت خائبة. قال: "في القرن الـ 21، في عصر المعلومات، مازلنا نتحرك وفق عملية تنسيق بيني وهيكلية حكومية غارقة في العصر الصناعي العائد إلى القرن الماضي. من شأن الأمر أن يكون كما لو كانت وزارة الدفاع ساعية للتصرف اليوم دون

إصلاح غولدووتر - نيكولز لهيئة الأركان المشتركة، حيث كان كل سلاح مؤهلاً للانطلاق وحده وخوض الحروب البحرية والبرية والجوية على التوالي، وهو أمر لا يصح في العالم الذي نحن فيه. وأحد تعليقاتي على خيبة التنسيق البيني لم يكن بأي من الأشكال توصيفاً للناس المنخرطين في الأمر أو حتى البنية التي يتحكمون بها. إنه انعكاس لحقيقة أن البنية الحكومية هي إحدى مخلفات حقبة سابقة. إنه أمر نحس به جميعاً، فيما أعتقد، بالمناسبة".

سألته: "هل أبلغت الرئيس بالأمر؟"

"بالتأكيد".

"ما الذي يقوله؟"

"أنا لا أقول ما يقوله".

"غير أنه أمر، من شأنه أن يكون أمراً بحاجة إلى ضبط، أليس كذلك؟"

"بالفعل" قال رمسفلد. على جدار مكتبة، تماماً مقابل طاولته الكبيرة، تدلت نسخة من ملصقة "أريدك" الخاصة بالتجنيد للعم سام العجوز العائدة إلى أيام الحرب العالمية الأولى. أما الشعار على ملصقة رمسفلد فكان يقول: "نحن في حرب. هل تبذل كل ما تستطيعه من جهد؟" أفاد بأنه لم يكن مقتنعاً بأن باقي الإدارات الحكومية كانت تفعل كل ما كانت تستطيع فعله.

"هذه الوزارة في حرب" قال رمسفلد "أما الوزارات الأخرى فليست في هذا الجو. تتم مطالبتها بالقيام بشيء ليست منظمة، مدربة ومجهزة للقيام به. يستغرق الأمر وقتاً وهو صعب وثمة مقاومة في الكونغرس. فالناس منجذبون إلى منظمات تبعاً لميولهم. وأولئك المنجذبون إلينا هم أولئك المستعدون للانتشار والجاهزون لاقتحام المناطق الخطرة. أما أولئك المنجذبون إلى الوزارات الأخرى فقد يكونون وقد لا يكونون مستعدين. وإذا ما طولبوا بالانخراط، فإن الأمر ليس ما التحقوا بالوظيفة للقيام به. وقد لا يكون تعزيزاً للحياة العملية".

أورد رمسفلد مثالاً من عام 2001، حين قال إنه كان عاجزاً عن إيجاد تمويل تدريب جنود في أفغانستان: "لماذا لم نستطع؟ حسناً، لأن وزارة الخارجية تحتكر مخصصات التدريب، وهي مبرمجة وموزعة قبل عامين أو ثلاثة".

كثيرون في الجيش كانوا يشعرون بأن إدارات الحكومة الأمريكية الأخرى لم تكن قد شاركت في الحرب، قلت له، ولم تكن تتحمل قسطها العادل من الأعباء.

تم سألته: "هل تستطيع أن تتقاسم مع الجيش هاجسه؟"

"حسناً. بالتأكيد. أشاطره! يا إلهي! هل أستطيع مشاطرته؟ أنا هنا!"

هل تستطيع استنفار إدارات الحكومة الأخرى؟

"لقد حاولنا وحاولنا وحاولنا". قال رمسفلد.

كان ملر لا يزال مشغولاً بأمر الرئيس القاضي بتمكين البريطانيين والأستراليين من الدخول على كامل شبكة السبرنت العسكرية السرية. حضر اجتماعاً في البنتاغون مع بعض المدنيين المفتاحيين وضباط الأركان المكلفين بمعالجة المسألة. قام بتلاوة توجيهات كل من رمسفلد والرئيس على مسامع الفريق.

"لا تعني دخولاً غير مقيد" قال جنرال ثلاثة نجوم من الأركان المشتركة.

"إذا كان الرئيس ووزير الدفاع قد أراد أن يقولا مكّنوهم من الدخول وفق الشروط التالية، فإنهما يكونان قد قالا ذلك". رد ملر، محدّقاً في عين الجنرال. "هذه وثيقة مجازة بياً. مسؤولوكم وقعوا. الدخول يعني الدخول. ما الذي لا تفهمونه حول "الدخول"؟"

قام ملر بإعداد مادة طلب من هادلي إرسالها إلى رمسفلد باسم الرئيس طالباً منه تسوية أمر الدخول على السيبرنت.

"نظر" رد هادلي بنبرة ودية. "مكلف أنا بمهمتين صعبتين تخصانني شخصياً. لابد لي من ترسيخ علاقتي الخاصة مع الرئيس، ويتعين علي أن أغير طبيعة علاقتي مع رمسفلد من كونها علاقة نائب إلى علاقة ند. وخطوة خروجي الأولى من الحلقة لن تكون: "جماعتك يفسدون الأمور يا دون. هيا بادر إلى التصويت!""

أقر ملر بوجود نوع من المنطق في ذلك. ثمة أشياء كثيرة أخرى تتطلب قدراً من التركيز أكثر من مجرد قضية تقاسم المعلومات هذه. ومع ذلك فقد تعين عليهما أن يتعلّا القنوات الخلفية أكثر فأكثر وصولاً إلى تنفيذ أمر الرئيس. صُعق ملر من أن الجميع على المستويات العليا – رئيس الجمهورية، رمسفلد، رايس وهادلي – بدوا مسلّمين بالانحلال والتحدي المتفشيين في النظام.

هناك في مكتبه على الطبقة الثانية من الجناح الغربي كان كارل روف سائباً بلا عمل، يكاد يصارع الجدران بعد أربعة أيام من حفل تنصيب بوش الثاني. فعمله الحقيقي، السعي لإعادة انتخاب بوش، كان قد انتهى. ما الذي كان يستطيع أن يفعله الآن وهو في الـ 54 من العمر؟

"كان يا ما كان. الانحدار من هنا، هيا!" حاول أن يمازح زميلاً قائلاً: "لا أعرف ما أعنيه. أنا مولع بعملي وسأبقى ملتصقاً بالمكان لبعض الوقت". بوصفه أحد كبير مستشاري بوش الأب كان من شأنه أن يضطلع بدور كبير في مجال التخطيط الاقتصادي وغير الاقتصادي. "وظيفتي هي أن أكون زميلاً جيداً. أثير كثيراً من اللغط دون جعل الناس ينفرون".

غير أن روف كان في حالة سأم. كان يعزف "بوقاً أحمر العنق" يعمل بالبطارية كان قد عرضه على الرئيس. كلما ضغط زراً من أزرار العلبة البلاستيكية المكعبة، كانت الآلة تطلق عدداً من الشتائم الداعرة والمهينة برطانة جنوبية غاضبة. فما إن ضغط روف على أحد الأزرار حتى أطلقت الدمية الحمراء عبارة: "مهلاً يا غبي! محلات والمارت مفتوحة الليل كله". زر آخر ويخرج صوت: "إجازة سوق؟ يجب أن تكون حاصلاً على واحدة يا حمار!"(*).

واصلت وكالة الاستخبارات المركزية سيل تحذيراتها المطردة حول ممارسة العراق الوشيكة للديمقراطية. كان السنة سيتعرضون للاستبعاد وكان العنف سيتصاعد، حسب تلك التحذيرات. كانت التقارير التحذيرية السرية المصنفة مطردة، وقد تعاظمت في الأيام التي سبقت تاريخ 30 كانون الثاني/يناير. في بغداد، اختلف نغروبونتي مع وجهة نظر وكالة الاستخبارات المركزية، ودأبت السفارة على تشجيع الأمم المتحدة والعراقيين على السير قدماً. قال السفير على الملأ "إن الوضع الأمني مناسب".

بعد قيام أحد عناصر وكالة الاستخبارات المركزية بتقديم إنذار آخر، تدخل بوش صارخاً: "هل هذا صَحّاف بغداد؟" في إشارة إلى وزير إعلام صدام. كانت تلك إهانة

(*) كانت اللعبة تحمل ثمانية تسجيلات أخرى: "أنت يا خنزير من علمك السوق؟" "ما معنى تلك المناورة بحق الجحيم؟" "هل أنت في سباق يا حقير؟" "أنت يا ابن الكلب!" "ابعد عن طريقي يا ... وإلا!" "هل أنت مصاب بالعمى؟" "ضع الهاتف الخليوي جانباً يا عديم العقل!" وأخيراً "لست إلا مغفلاً!".

مدمرة. تابع بوش كلامه الغاضب قائلاً: "لا أسمع ذلك إلا من وكالة الاستخبارات المركزية. إذا انتظرت مزيداً من الوقت ليس ثمة ما يشير إلى أن الوضع الأمني سيتحسن. أعول على ما ستفتحه الانتخابات والحكومة المنتخبة من أفق على صعيد التهدئة وتحسن الوضع الأمني".

لم تكن العملية الانتخابية إلا لاختيار مجلس وطني انتقالي يتولى تعيين حكومة مؤقتة ووضع مشروع دستور دائم. وهذا الدستور كان سيتم عرضه بعد ذلك على الشعب العراقي للاستفتاء عليه في الخريف - بعد تسعة أشهر. وإذا ما تم اعتماده فإن انتخابات عامة ثانية كانت ستتبع في غضون شهرين لاختيار حكومة دائمة بموجب الدستور الجديد. كانت عملية مطولة، شاقة ذات ثلاث مراحل. غير أنها كانت حاصلة على موافقة الأمم المتحدة وأصر الجميع على التمسك بها. مرة أخرى عبّر بوش عن عدم اطمئنانه إلى أن من شأن الانتظار أن يساعد.

أخيراً، في لقاء إعلامي بالمكتب البيضوي، قبيل موعد الانتخابات العراقية، بعد الاصغاء إلى أحدث نبوءات وكالة الاستخبارات المركزية المتشائمة، صفّق الرئيس فجأة بقوة محدثاً صوتاً أشبه بصوت إطلاق النار، وأغلق دفتر ملاحظاته صفقاً وهو يقول:

"حسناً، سوف نرى من منا على صواب".

مع اقتراب الموعد، طار العنف إلى السماء. حذر الميجر جنرال بيتر تشيارلي في بغداد، الذي أمضى عاماً كاملاً قائداً لفرقة الخيالة الأولى، قائلاً: "أتوقع حدوث شيء بالغ الإثارة" إما في يوم الانتخاب أو قُبيله. يوم 26 كانون الثاني/يناير، حوامة مارينز مميزة تحطمت في الجزء الغربي من البلاد بلغ عدد الضحايا 31 أمريكياً. كانت الحادثة المنفردة الأقسى بالنسبة إلى القوات الأمريكية منذ الغزو.

في حديثه الإذاعي يوم السبت، قبل يوم من الانتخابات العراقية بالغ الرئيس في التحدي قائلاً: "غداً سيشهد العالم منعطفاً في مسار تاريخ العراق". ولاحظ أن إرهابي القاعدة الزرقاوي، الذي كان وراء العديد من السيارات المفخخة وعمليات حز الرقاب في العراق، كان مؤخراً قد عَدّ الديمقراطية "مبدءاً شريراً".

استيقظت رايس صباح الأحد الواقع في 30 كانون الثاني/يناير، وأدارت قناة السي ان ان. جاء الصوت قبل ظهور الصورة. سمعت:

"... يوم غير عادي بالنسبة إلى العراقيين".

ما لبثت الصورة أن ظهرت؛ كانت ثمة أرتال طويلة من العراقيين أمام صناديق الاقتراع. اتصلت رايس بالرئيس.

"عليك أن تفتح التلفزيون" قالت رايس. "يكفي أن ترى المشهد".

"أليست رائعة؟ أليست حصيلة جيدة؟" سأل بوش.

"مدهش حقاً. مذهل أن يرى المرء ما يفعله هؤلاء العراقيون".

ما يقرب من 8 ملايين عراقي ذهبوا إلى صناديق الاقتراع. كثيرون لوحوا بأصابعهم المصبوغة بالحبر الأرجواني في الهواء للدلالة على التصويت. كانت تلك نتيجة مذهلة مع حد أدنى من العنف.

رآها بوش تسويغاً ليس لسياسته العراقية وحسب بل ولبرنامجه الخاص بنشر الحرية. فالعراقيون أمسكوا باللحظة وبادروا إلى التحكم بمستقبلهم. وجه بوش خطاباً متلفزاً وجيزاً إلى الأمة. قال:

"إن العالم يصغي إلى صوت الحرية المنبعث من قلب الشرق الأوسط. وقد نجح العراقيون "في استعادة حقهم المشروع في التحكم بمصير بلدهم".

أحس غيرسون بحصول نوعٍ من الانقلاب في المزاج والجو داخل البيت الأبيض، وقد بدا كما لو أن منعطفاً قد تم تجاوزه. إلا أن الأقلية السنية كانت، عملياً، قد قاطعت الانتخابات بما أفضى إلى استبعاد 20 بالمئة من السكان – وهي شريحة مهمة، حاسمة سبق لها أن كانت منبع النخبة في ظل صدام. والسنة هؤلاء كانوا يشكلون العمود الفقري لحركة التمرد.

في بغداد خلال كانون الثاني/يناير 2005، وضع مركز وكالة الاستخبارات المركزية تقويماً رئيساً شاملاً حمل عنوان آرد وولف (AARD WOLF). كان التقويم وثيقة مهمة تفيد بأن التمرد يزداد قوة والعراق على شفير هاوية حرب أهلية. وعلى الرغم من النشوة التي أحدثتها الانتخابات فإن الهجمات المعادية كانت قد قفزت من نحو 2000 في كانون الأول/ديسمبر إلى 3000 في كانون الثاني/يناير. قام نغروبونتي باستعراض التقويم وطلب من رئيس قسم وكالة الاستخبارات المركزية، روب رتشر، ومن رئيس مركز الوكالة ببغداد أن يصارحا الرئيس بوش.

قال لرئيس المركز: "افعل الشيء نفسه".

لم يقل نغروبونتي سوى: "تعاني من بعض المنغصات".

أحس رتشر بأن هذا لم يكن سوى أسلوب كلاسيكي من أساليب تغليف الأنباء غير السارة بطبقة من السكر. فيما بعد واجه نغروبونتي حول الإخفاق في دعم رئيس المركز كما سبق له أن وعد.

قال نغروبونتي: "أنا أقوم بتمرير رسالتي".

لدى تولي هادلي مستشارية الأمن القومي، كان لبوش توجيه أساسي واحد: "أنا واثق من أنك ستضمن لي عملية تمكنني من الاستماع إلى وزرائي". كان الرئيس مؤمناً بترك مديري الخطوط يسيّرون إداراتهم. "قد تكون صاحب وجهات نظر خاصة" قال بوش "وتبوح لي بها حين أطلب منك ذلك".

من تجربته نائباً لرايس، كان هادلي يعلم أنه كان سيقضي فترات طويلة من الوقت وهو يعمل جنباً إلى جنب مع الرئيس. كان من شأن طريقةٍ ما أن تتوفر لتمكينه من تمرير أفكاره. غير أن هادلي بقي راسخ الإيمان بأنه، هو وجهاز مجلس الأمن القومي، لم يكونا متمتعين إلا بدور محدود. لم يكونوا منتخبين، بل ولم يكونوا مثبتين من قبل مجلس الشيوخ. أما إدارة البرامج باللجان فكان لابد من تجنبها لضياع المسؤولية.

استخلص هادلي أن فضل النجاح كان من شأنه أن يعزى إلى الرئيس أو الوزراء. أما الإخفاق فكان من شأنه أن يُنسب إليه هو، ولو جزئياً. صحيح أن وظيفته مهمة ولكنها غير محمودة في النهاية. كان من غير الوارد أن يحاول ارتداء ثوب مستشار أمن قومي من قياس هنري كيسنجر الذي كان يهز العالم، والذي دأب على منافسة الوزراء وتجح، آخر المطاف، في الهيمنة عليهم. بل ولم يكن يريد حتى أن يبرز مثل رايس. كان هادلي يأمل في أن يكون مثل برنت سكوكروفت، مستشار الأمن القومي لدى بوش الأب، ذلك الشخص المتواضع الذي كان يعمل في الغالب بعيداً عن الأضواء.

بوصفه نائباً لرايس، بقي هادلي رجل حل العقد، الشخص المستعد للاتصال بآميتاج أو وولفوفيتز أو أحدهم في وكالة الاستخبارات المركزية لحل هذه المشكلة الآنية أو تلك. أما الآن فقد أبلغه الرئيس بأن عليه أن يكف عن أن يكون مستر حلاّل عند. قال بوش: "عليك يا هادلي أن تختار نائباً جيداً لأنك ستبقى ملزماً بمساعدتي

على التفكير باستراتيجيتنا الشاملة، وبمدى صحة تنظيمنا، كما على اجتراح مثل هذه الاستراتيجية". في الوقت نفسه، وكما كان هدلي يعرف تمام المعرفة، كان مزاج الرئيس الطاغي هو فراغ الصبر في الغالب. إذا أراد حل مشكلة ما فإنه كان عموماً، يحيلها على أقرب الأشخاص. وفي مناسبات تكررت كثيراً جداً كان ذلك قد عنى رايس و هادلي. لذا فإن هادلي كان من بعض النواحي سيحتفظ بوظيفته القديمة مع الاضطلاع في الوقت نفسه بوظيفة جديدة.

أجرى تقويماً للمشكلات الموروثة عن الفترة الرئاسية الأولى.

قال لأحد زملائه يوم 5 شباط/فبراير: "تقويمي لأدائنا هو بي (B) ناقص بالنسبة إلى التنمية السياسية ودي (D) ناقص بالنسبة إلى التنفيذ السياسي".

كان هادلي يعلم أن مشكلات العراق الأساسية: - الأمن، البنية التحتية والحكم - لم تكن قد حُلت بعد مرور ما يقرب من عامين على الغزو. وتقويمه كان منطوياً على أهمية خاصة لأنه كان دائم الإصرار على أن مجلس الأمن القومي لم يكن مضطلعاً بأي دور في تنفيذ الخطة. وبالتالي من شأن الدي ناقص ألا ينطبق عليه على ما يبدو. كان تقويم الدي ناقص يخص العمل الذي قام به أناس مثل باول ورمسفلد.

ما الذي كان رمسفلد يراه في تلك الفكرة؟

في إحدى المقابلات اللاحقة، حين أوردتُ تقويم هادلي، قال لي رمسفلد: "لو كنت مكانه لأسقطت تلك الأمور". لم تكن المشكلة مشكلة تنفيذ؛ كانت مشكلة تنمية سياسية، مشكلة تطوير خطة. "أعتقد أن تنفيذاً جيداً جداً قد تم في عدد كبير من الأشياء" أضاف رمسفلد.

بعبارة أخرى، كانت المشكلة كامنة في اختلال التنسيق البيني، لا فيه هو.

35

جاء بندر إلى البيت الأبيض يوم 5 شباط/فبراير لمقابلة بوش. مؤخراً كان أحد الأفغان قد طرق باب السفارة السعودية في إسلام آباد، الباكستان، وقال إنه يعرف المكان الذي يختبئ فيه أسامه بن لادن. وقد زعم أنه كان قادراً على تحديد المكان إذا زوده بخارطة. وبما أن الرجل كان يخاطر بنفسه وبأسرته، فإنه كان يريد من السعوديين أن يلتزموا بأخذهم إلى المملكة وتمكينهم من العيش فيها بقية حياتهم.

أجرى السعوديون بعض التقويمات الأولية وبدا لهم المخبر طارق الباب مثيراً للاهتمام فوعدوه بملاذ. كان قد حدد نقطة بدت معقولة على الخارطة.

أفاد بندر بأن السعوديين خططوا لإرسال وحدة عسكرية أو استخباراتية إلى المكان وإلقاء القبض على بن لادن".

"إلى الأمام، هيا" قال الرئيس "يمكنني ألا أبالي".

التمس بندر مساعدة وكالة الاستخبارات المركزية في تقويم المصدر وحصل على موافقة بوش.

لم يكن بندر على علاقة مع بورتر غوس، فاتصل، قبل مغادرة البيت الأبيض، برئيس قسم الشرق الأدنى وجنوب آسيا في وكالة الاستخبارات المركزية: روب رتشر.

"سنذهب إلى الباكستان" قال بندر

" لا أستطيع أن أتلقى أي أوامر منك". رد رتشر معترضاً.

غير أن رتشر ما لبث، فوراً تقريباً، أن تلقى أوامره عبر القنوات النظامية. ذهب إلى دارة بندر، وسرعان ما كان وبصحبتهما خبير آخر من وكالة الاستخبارات المركزية على متن طائرة بندر.

ما إن وصلوا إلى الباكستان حتى باشروا النظر في أمر طارق باب السفارة. يا للهول! سرعان ما اكتشف عناصر وكالة الاستخبارات المركزية أن الطارق كان بضاعة

معروفة لدى كل من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وجهاز الاستخبارات البريطانية المعروف باسم الام آي 6. كان قد سبق له أن جرب الخدعة من قبل.

لماذا لم يكن السعوديون وعناصر وكالة الاستخبارات المركزية قادرين على اكتشاف الحقيقة قبل الذهاب إلى الرئيس وإرسال بعثة إلى الباكستان؟ "يعود السبب" قال من لهم علاقة "إلى أن أحداً لا يتقاسم المصادر مع أحد. إنه أسلوب عمل مألوف. كل الشخص محتالاً. كان همه الأول هو الحصول على المال".

جرى إبلاغ بوش بالمحصلة: لابن لادن.

أوائل عام 2005، قام رمسفلد بإيفاد الجنرال المتقاعد غاري إي لوك إلى العراق للقيام بمسح شامل. ولوك هذا، وهو رئيس سابق للقوات الأمريكية في كوريا الجنوبية. كان مستشاراً للجنرال فرانكس خلال احتياج العراق في 2003.

ولوك الذي يحمل شهادة الدكتوراه في الرياضيات كان مكلفاً بمعاية الاستراتيجية، مستوى القوات وبرامج التدريب. اكتشف أن تدريب الجيش العراقي الجديد كان مشوهاً كلياً، كارثياً. في الكثير من الحالات لم يكن ينطوي على ما هو أكثر من تسليم المجند بندقية، تدريبه مدة ثلاثة أيام وتسميته جندياً في الجيش العراقي الجديد.

قال لوك للجنرال ميرز: "من المؤكد أننا استخففنا بتأثير صدام حسين ونظامه في روح الشعب العراقي. ما من أحد كان يكافأ على إبداء أي مبادرة في ظل صدام حسين. أما الآن فنحن نطالب الجميع بالتحلي بكل هذه المبادرة وهم لا يعرفون كيف يبادرون".

لم تكن رايس بحاجة لتقرير لوك كي تعلم أن تدريب الجيش العراقي كان كارثياً. غير أن التقرير أشار، برأيها إلى نقطة جوهرية تمثلت باستحالة تدريب الجنود الأفراد؛ كان لابد من تدريب وحدات كاملة.

قامت رايس بتعيين صديق قديم، فيليب زليكوف، مستشاراً لوزارة الخارجية، منصب كبير قوي ولكنه غير معروف على نطاق واسع، كان من شأنه أن يمكّنه من القيام بمهمات خاصة نيابة عنها.

كان زليكوف البالغ الـ 50 من العمر، وهو محام يحمل شهادة الدكتوراه في التاريخ، رئيساً لمركز ملر بجامعة فيرجينيا، المتخصص بدراسة الرئاسات الحديثة. كان قد شارك رايس عام 1995 في تأليف كتاب: **ألمانيا موحدة وأوربا محوَّلة**، الكتاب الوحيد

الذي أقر الرئيس الأسبق بوش وبرنت سكوكروفت بالإفادة منه في مذكراتهما. انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي كانا قد أضفيا ثوب التفاؤل على رايس وزيليكوف. بات تصويب السياسة الخارجية ممكناً.

كان زليكوف، الذي يمكن عده مصرفياً بارعاً، قد شارك أيضاً في تأليف كتب عن أزمة الصواريخ الكوبية وتولى عضوية المجلس الرئاسي الاستشاري لشؤون الاستخبارات الأجنبية. وأخيراً كان المدير التنفيذي للجنة 9/11 التي أجبرت رايس على الشهادة أمام الملأ وطرحت أسئلة جدية حول رد الإدارة على القاعدة فيما قبل 9/11. كذلك كان قد أشرف على كتابة وتحرير تقرير 9/11 النهائي، وهو مؤلف حظي بالمثير من الإطراء وكان من المؤلفات الأكثر بيعاً تضمن تفاصيل شاملة وتأسيسية عن جذور الهجمات، تخطيطها وتنفيذها.

قامت رايس بإيفاد زليكوف وفريق صغير إلى العراق. كانت بحاجة إلى حقائق ميدانية، إلى تقرير تفصيلي شامل كتبه شخص تثق به. كان زليكوف متمتعاً بحرية الذهاب إلى جميع الأمكنة وطرح كل الأسئلة دون استثناء.

في 10 شباط/فبراير، يوم رايس الـ 14 وزيرةً للخارجية، قدم إليها زليكوف وثيقة مؤلفة من 15 صفحة مضغوطة بعنوان **مذكرة إلى وزيرة الخارجية**. حمل التقرير عبارة **سري/نوديس**، بمعنى "غير قابل للتوزيع" على أي جهة أخرى.

قرأت رايس أن انتخابات كانون الثاني/يناير، التي كانت قد بالغت في خض البيت الأبيض، كانت قد شكلت نجاحاً بارزاً، "غير أننا مازلنا في منعطف حرج.

"فعند هذا المنعطف يبقى العراق دولة مفلسة غارقة في مستنقع دائم من العنف ومتعرضة لعملية تغيير سياسي ثورية" قرأت رايس. يا لها من فكرة صاعقة! "دولة مفلسة" بعد عامين، آلاف القتلى، ومئات مليارات الدولارات. عبارة "دولة مفلسة" كانت بالغة السوء في قاموس الجغرافيا السياسية إلى درجة أن رايس أرادت أن تتذكرها على نحوٍ مختلف كما لو أن زليكوف كان قد قال إن العراق كان فقط في خطر أن يصبح دولة مفلسة. غير أن الحقيقة هي أنه كان قد قال إنه دولة مفلسة.

صورة بشعة. فالتمرد كان "يجرى احتواؤه عسكرياً" غير أنه بقي "فعالاً جداً" زارعاً مشاعر "الخوف والقلق الشديدين" في قلوب المدنيين العراقيين، حسب تعبير زليكوف.

الظروف بالنسبة إلى موظفي الولايات المتحدة بدت شبيهة بنظيرتها أيام بريمر؛ أسرى داخل المنطقة الخضراء. "قابلية تحرك موظفي التحالف محدودة جداً، والنشاط الحكومي المنتج مكبَّل".

قرأت رايس في التقرير: ثمة "خطر حدوث رد فعل من جانب السنّة المستائين" جراء هيمنة الشيعة والأكراد على الانتخابات.

ومؤشرات مثل هذا الرد العنيف كانت متوافرة يومياً. فقبل يومين، مثلاً، كان أحدهم قد تسلل إلى حشد من مجندي الجيش العراقي في بغداد وفجر نفسه موقعاً بحيوات 21 وجارحاً 27 مجنداً. كان المتمردون قد قتلوا 168 عراقياً في الأيام العشرة التي تلت انتخابات 30 كانون الثاني/يناير. تمثل الواقع المثير للدهشة بحصول 3000 هجوم في كانون الثاني/يناير – نحو الثلثين من الهجمات على قوات التحالف والتلث على قوات الأمن العراقية والمدنيين العراقيين – غير أن تلك المعلومات بقيت مصنفة في خانة "مكتوم".

انتقد زليكوف الجهد المتمركز في بغداد، ملاحظاً أن "من المؤكد احتمال خسارة الحرب في بغداد، غير أن من الممكن كسب الحرب فقط في المدن والأقاليم خارج بغداد". حض زليكوف التحالف على تمكين السلطات المناطقية والمحلية من تحسين الأمن والاستخبارات، واقترح استحداث فرق أمنية مناطقية مؤلفة من عسكريين ومدنيين من التحالف. كان من شأن ذلك أن يحل محل الرقع البشرية المشكلة من عناصر ينتمون إلى القيادات العسكرية، إلى مكاتب السفارة في المحافظات وإلى فريق وزارة الخارجية.

قرأت رايس أن زليكوف كان قد التقى وتأثر بالميجر جنرال بيتر تشيارلي، قائد فرقة الفرسان الأولى في الجيش، الذي كان أحد دعاة ما أطلق عليه الجيش اسم "العمليات الشاملة للطيف"، بمعنى أن جنوده لم يكونوا يكتفون بأداء المهمات الميدانية النموذجية مثل قتل المتمردين، بل كانوا أيضاً ينخرطون في مشروعات مدنية ويمدون يد المساعدة إلى السكان المدنيين. كان تشيارلي قد نشر جنوده لتنفيذ التمديدات الصحية للبيوت السكنية. أفاد زليلكوف بأن هذا كان أفضل تقرير موجز سمعه من أي جنرال.

"أكد الجميع أن التحرك على صعيد هذا البعد المدني لأداء الحكومة بات اليوم مفتاحاً لحل المشكلة العسكرية. أوصينا بأن تتولى الولايات المتحدة دور الريادة في

تحديد أهداف قوية من أجل بلوغ مستويات أعلى بكثير في عمليات توزيع الكهرباء والوقود في طول البلاد وعرضها خلال الأشهر الستة القادمة". ففي الأشهر الستة الأخيرة، شهدت وفرة الكهرباء والوقود تضاؤلاً.

كذلك لاحظت المذكرة احتمال تزايد صعوبة الحصول على المال اللازم لإعادة البناء، تباطؤ عمليات تدريب الشرطة الحاسمة، كون كركوك، تلك المدنية الكردية العائمة فوق بحر من النفط على مسافة 200 ميل إلى الشمال من بغداد، برميل بارود، غرق النظام المصرفي في حالة الفوضى، بقاء النظام الزراعي من موروثات العهد السوفيتي، والحاجة الماسة إلى نظام عدلي عراقي حقيقي بما يضمن حصول كبار الموقوفين على محاكما عادلة.

عموماً، قرأت رايس، أن المسعى الأمريكي كان يعاني لافتقاره إلى خطة مدروسة، محكمة، شاملة، موحدة.

كانت مذكرة زليكوف باعثة على الكآبة، غير أن رايس لم تكن ممن ييأسون.

"عاكفة أنا على دراسة هذا الموضوع منذ سنوات" قالت رايس. راودها شعور قوي بالمسؤولية، ليس جراء منصبها الحكومي الراهن وحسب. فقد كانت في البيت الأبيض حين قرر بوش أن يغزو، وكانت إحدى شخصين اثنين فقط تمت استشارتهما سلفاً. قالت: "العراق جزء مني علي أن أتصرف من هذا المنطلق. كنت عضواً في الفريق الذي أقدم على اتخاذ ذلك القرار". من الواضح أن مساعي وزارة الخارجية لم تكن وافية. لم تكن البعد السياسي للحرب ضد المتمردين يحظى بما يكفي من الاهتمام. كان لابد من بذل جهود منسقة ومدروسة لكسب القلوب والعقول على المستوى المحلي في العراق. لم تكن رايس قد زارت العراق إلا مرة واحدة، ولفترة وجيزة جداً، بصحبة بوش في جولته المبغتة يوم عيد الشكر في 2003. لم تكن تلك سوى مناسبة التقاط للصور. كانت تواقة لزيارة حقيقة.

"ليس هذا هو الوقت المناسب، قال جفري، غير أنها بقيت مصرة وبرمجت لرحلة في الفاتح من آذار/مارس. بادر كبير مساعديها، جيم ولكنسون، إلى إبلاغ مراسلي وزارة الخارجية عن الرحلة المبرمجة همساً، (بينه وبينهم)، قائلاً: "لا تستطيعون الكتابة عن الموضوع. لأغراض التخطيط فقط". كان ولكنسون هذا البالغ 35 سنة من العمر مديراً للاتصالات الاستراتيجية لدى رايس في مجلس الأمن القومي بالبيت الأبيض

ومن بعدها عند الجنرال تومي فرانكس خلال الحشد وغزو العراق. وقد كتب الأخير، فرانكس، في مذاكراته أن رجل العلاقات الشاب "كان يبدو أشبه بتوم سوير دون قصبة صيد السمك".

رغم تحذيرات ولكنسون بدأت الرسائل الالكترونية تتطاير. كانت رايس نجمة روك إدارة بوش، واجهة دبلوماسية فعالة جديدة. "ملابس كوندوليزا رايس الآسرة" كان عنوان إحدى مواد ملحق الأزياء **للواشنطن بوست** أواخر شباط/فبراير. وقد تركزت المادة على جزمتها الطويلة حتى الركبة "المثيرة جنسياً". وبعد قليل تسابقت الصحف على نشر أخبار زيارتها 'لوشيكة للعراق.

تلقت رايس فيضاً من التهديدات بالقتل كل أسبوع من متطرفين منتمين إلى مجمع الطيف السياسي، موزعين بين عنصريين بيض في أقصى اليمين من جهة ويساريين اتهموها بالاتجار بزنوج أمريكا من الجهة المقابلة. أدرك ولكنسون ورئيس جهاز أمن رايس أن من شأن الإجهاز على رايس أن يشكل ضربة بالغة الإثارة بالنسبة إلى متمردي العراق. إن زيارة سريعة، مباغتة، كانت أفضل أشكال الأمن. غير أن تلك باتت الآن مستحيلة. باتت بالغة الخطورة. قالا لها: "لا تستطيعين السفر" وانفجرت غضباً. "كيف يمكن لمثل هذا أن يحصل؟"

"بصراحة" قال ولكنسون لسِلْك الصحافة في وزارة الخارجية "لن تعلموا شيئاً عن زيارتها المقبلة. ستستيقظون لتكتشفوا أن كوندي رايس صارت في بغداد. آسفون".

كان بوش عاكفاً على البحث عن مدير للاستخبارات القومية. كان يريد شخصاً قادراً على إضفاء منظور الرئيس، أي رئيس، على المهمة، شخصاً كان قد سبق له أن كان مستهلكاً للمواد الاستخباراتية، يعرف أهمية إنتاج المعلومات الاستخباراتية بالنسبة إلى واضعي الخطط على صعيد اتخاذ القرارات. كان يريد شخصاً مستعداً لأن يسأل عن أفضل سبل إيصال المعلومات الاستخباراتية إلى الرئيس. وكان بحاجة إلى شخص غير قابل لأن يصبح أسيراً لدى أحد الأجهزة البيروقراطية - الخارجية، الدفاع أو الأجهزة الاستخباراتية. والأهم من ذلك كله، كان لابد من الاهتداء إلى شخص مؤهل لضمان عدم تكرر فضائح استخباراتية أخرى من طراز فضيحة أسلحة الدمار الشامل، مهما كان الثمن.

اتصل كارد مع نغزوبونتي في العراق. أفاد الأخير بأنه مهتم، وكان سيأتي إلى البيت الأبيض للتحدث عن الأمر. وفي الطائرة من بغداد قرأ القانون الجديد المؤلف من 262 صفحة.

"ما الذي تعنيه الوظيفة؟" سأل كارد عند لقائهما. كان من شأن مدير الاستخبارات الـومية، الدي ان آي (DNI) أن يتمتع ببعض السلطة على أجهزة استخبارات البنتاغون ولكن دون أن يكون ممسكاً بزمامها ومتحكماً مئة بالمئة بالملاك. كان ثمة عدد كبير من المهمات المعروفة بذوات القبعات المزدوجة، حيث يقوم رئيس جهاز الأمن القومي برفع تقريره إلى كل من رمسفلد من جهة والدي ان آي من جهة ثانية، مثلاً. أما الاف بي آي (مكتب التحقيقات الاتحادي) فكان سيبقى جزءاً من وزارة العدل. إنه خارج نطاق سيطرة الدي ان آي ولكنه جهاز استخبارات مفتاحي في معارك الحرب على الإرهاب.

قال كارد "إنه أمر جديد". ثمة فيض من الأسئلة الوجيهة. لم يكن متوفراً على الأجوبة. لابد من الابتكار، من الإبداع، برأيه. "أليس ذلك أفضل؟ قد يكون ما تجترحه الآن هو الأنموذج الذي سيكون معتمداً من قبل المدير الشاغل للمنصب بعد 20 أو 15 سنة من الآن. ما عدد الفرص المتوفرة في الحكومة الأمريكية لبناء مؤسسة؟"

التقى نغروبونتي الرئيس. قال الأخير: "سيكون هذا تاج مسيرتك الوظيفية".

لم يكن هناك عدد كبير من طالبي الوظيفة، وكان نغزوبونتي راغباً في ترك بغداد. كان بوش بحاجة إلى شخص عملي، وبدلاً من ملاك قاتل كان سيحصل على أحد أكثر دبلوماسيي المدرسة القديمة نعومة وأقلهم صدامية.

أعلن بوش تعيين نغروبونتي يوم الجمعة الواقع في 17 شباط/فبراير 2005. برزت مسألة البحث عمن يحل محله. تمثل الخيار الحقيقي الوحيد بخليلزاد، وكل من رايس وهدلي كانا متلهفين لإيصاله إلى بغداد، غير أنهما كان راغبين أولاً في توجيه اللوم إليه على مخالفة الرئيس بشأن تاريخ الانتخابات العراقية. لم يكونا، إذن، قادرين على ترشيحه مباشرة. مضى ما يزيد على شهرين على رحيل نغروبونتي قبل أن يتولى خليزاد منصبه في العراق.

◎ ◎ ◎

كان وقتاً صعباً بالنسبة إلى نائب الرئيس تشيني. لقد ظل نائب الرئيس الأنشط والأكثر نفوذاً في التاريخ. غير أن مركز الثقل فيما يخص العراق كان قد انتقل من البيت الأبيض – إلى الدفاع أولاً والخارجية الآن.

شعر كما لو كان يجري دفعه جانباً وإزاحته عن صنع القرار العراقي. في 23 شباط/فبراير قال تشيني لبندر: "ومن يظنون أنفسهم؟ أنا أيضاً تمت إعادة انتخابي".

كانت رايس عازمة على أن تنخرط بنشاط في إدارة العراق على نحو يومي. ولكن زمن مقاربة "ارفعوا أيديكم يا كبار المسؤولين! اتركوا بغداد وشأنها" إلى غير رجعة. ووثيقة الان اس بي دي – 36 (NSPD - 36) قضت بأن تكون الخارجية هي المسؤولة.

كان أول المرشحين لرئاسة الوزارة الانتقالية بعد انتخابات 30 كانون الثاني/يناير هو إبراهيم الجعفري، وهو شيعي كان عضواً في مجلس الحكم العراقي لحقبة بريمر من ناحية والحكومة المؤقتة بعد نقل السيادة من ناحية ثانية. وجده نغروبونتي بلغ الصعوبة، الشخص الوحيد الذي سبق له أن التقاه قادراً على الكلام ساعة كاملة دون أن ينقل سوى فكرة يتيمة. وفي إحدى مثل هذه الخطب المتواصلة ساعة أفتى الجعفري بعدم جواز تولي الطالباني، وهو كردي، لمنصب رئاسة الجمهورية الذي هو شعائري في جانب كبير منه. كان يريد التواصل مع السنة وكان من شأن وجود كردي في منصب الرئيس أن يبدو مرعباً. ومن ثم، في الدقيقتين الأخيرتين من الخطبة الطويلة، قال الجعفري إنه يقبل بالطالباني إذا كان ذلك ضرورياً.

بعد مغادرة نغروبونتي بغداد عائداً إلى واشنطن للشروع في حضور جلسات تثبيته بوصفه المدير الأول للاستخبارات القومية، أصبح جفري مسؤولاً أول في السفارة بوصفه قائماً بالأعمال. بدأت رايس تمطره بوابل من الاتصالات قائلة له إنها راغبة في المجيء إلى بغداد.

نصحها "لا" مرة أخرى "ليس الوقت مناسبا".

"مفهوم" قالت رايس. بعد انتخابات 30 كانون الثاني/يناير بدت عملية تثبيت الحكومة الجدية بالغة البطء. "بمن نتصل؟"

خاف جفري من السؤال. أولاً، كان يرى أنه قادر على معالجة العراقيين بنفسه. ثانياً، لم يكن لدى رايس – ومعها بوش، تشيني وهادلي بالمناسبة – سوى التصور الأكثر تعميماً للوضع على الأرض وللشخصيات ذوات العلاقة. لم يكن باستطاعة الرسميين في واشنطن منافسة العراقيين المراوغين.

جرى تنصيب الطالباني رئيساً للجمهورية يوم 7 نيسان/ابريل. وبعد دقائق سُمي الجعفري رئيساً للوزراء. تمثلت المهمة التالية بانتقاء مسؤولين آخرين لاستكمال تشكيل الحكومة.

أرادت رايس أن تشارك في ممارسة الضغط من أجل دفع عملية تشكيل الحكومة إلى الأمام. بقيت مصرة على الاتصال بالطالباني الذي كان قد بقي منخرطاً في معاوضات البقاء هذه منذ عقود.

سألته رايس عبر الهاتف يوم 22 نيسان/أبريل: "كيف تسير الأمور سيادة الرئيس؟"

أجابها بأن كل شيء كان عظيماً، حتى حين سألته عن ضرورة ضم عدد من السنة إلى الحكومة الجديدة. "صحيح، أنا أخبر ممثلكم حفري بذلك يومياً. إنني متعاون وستشاور معه ونحن نعتقد أننا نحقق تقدماً، نسير إلى الأمام".

أدرك جفري أن رايس لم تكن تريد لأي مكالمة أن تتعثر. كان الطالباني يقول أشياء إيجابية، لم يكن يجادل، ولم تكن رايس راغبة في الدخول على خط الذبذبات الجيدة. كان جفري يخشى احتمال انزلاق الطالباني إلى فكرة أو حل كان قد رُفض قبل أيام، و ن تراه رايس مشجعاً أو أن تأمر جفري بتنفيذه. اطمأن جفري إلى أن أي ضرر لم يترتب على المكالمة الهاتفية. رأى أن رايس كانت مشغولة بجميع المشكلات. لم تكن مستعدة لوقف المكالمة، فبادر هو إلى تغيير المسار وشجعها على القدوم إلى العراق لعقد مباحثات جادة. وبتلك الطريقة كان يستطيع أن يجلس إلى جانبها لدى اجتماعها مع كبار القادة العراقيين ليهمس في أذنها: "تلك هي الخطة ج التي صفّرتها في أحد اجتماعات مجلس الأمن القومي قبل ثلاثة أسابيع".

كان جفري يحضر اجتماعات مجلس الأمن القومي عبر دارة الفيديو الآمن، وكان ثمة نمط معين شديد الوضوح. درج هادلي على قول إن العراق كان أشبه بـ "ولد أُسيئت معاملته" وإن على الولايات المتحدة أن تواصل الاضطلاع بمهمة الوصي. أما رمسفلد فكان يقول بقوة ويكرر المرة بعد الأخرى إن من الضروري منح العراقيين فرصة الإخفاق و لسقوط على وجوههم، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لدفعهم إلى النهوض ونفض الغبار عن أنفسهم وصولاً إلى جعلهم ينخرطون في عملية الاهتداء إلى حلول. كان يحلو له استخدام تشبيه والد يحاول تعليم ولده ركوب الدراجة الهوائية. لابد من نزع عجلات التدريب وإبعاد اليد عن مؤخرة المقعد وإلا فإنهم سيكونون مع رجل في الأربعين من العمر غير قادر على امتطاء الدراجة الهوائية. كانت رايس في موقف وسط بين هادلي

ورمسفلد، وقد علقت في إحدى المرات قائلة: "دعونا نتركهم يمتطون الدراجات بأنفسهم، غير أن من الأفضل أن نكون قريبين للإمساك بهم".

حين سمع كارد هذا، تصور بينه وبين نفسه أن الدراجة الهوائية بدت منطلقة إلى الأمام، متوازنة، ثابتة آنياً. غير أنه كان يدرك أن لا وجود لأي دوّاسات.

obeikandl.com